المدينة المحرمة

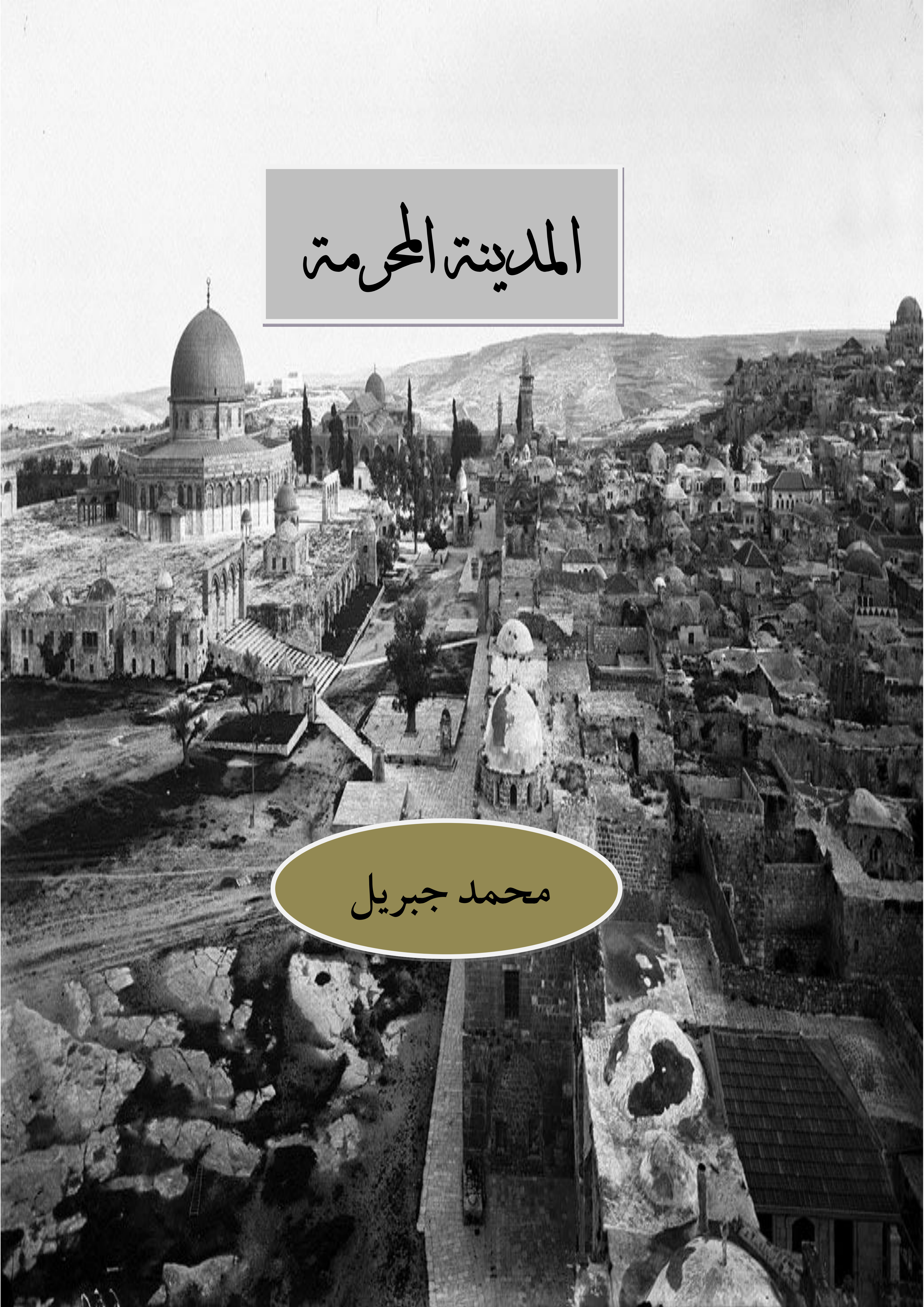

محمد جبريل

مع تحيات موقع

حكايا للرواية العربية

أنت يا ملقى بلا أهل، بلا أرض،

على أرصفة الغربة ملقى

نازفًا تحتضن في الصدر بساتين الوطن

وسماوات الوطن

فدوى طوقان

إذا ظللت حيًا، فإني سأقاتل حيث يجب،

وحين يجب،

ومادام يجب،

وحتى نهزم العدو،

ويزال العار الذي يلطخ الوطن

ديجول

نحن محكومون بالمقاومة ومواصلة القتال

إدوار سعيد

الفصل الأول

حصل على النصيحة من قبل أن يبدأ رحلته، من قبل أن يعرض حياته للخطر. النصيحة التي تساعده في التغلب على ما قد يصادفه من عقبات. ثمة شيء مفعم بالحنين والشوق والتطلع، يتصاعد من داخله، ومن الكائنات حوله، لا قسمات، ولا ملامح محددة، وإن امتلأ به تماماً.

ترك المدينة، والتجأ إلى السهول والبراري والوديان، ينشد المدينة المحرمة..

المدينة المحرمة هي الموضع الذي يهفو إليه خياله، براح بلا أفق ينتهي إليه.

أهمل التحذيرات المشفقة، أو المخوفة، من كلاب البراري والضفادع القرناء والثعابين والسناجب.

مضى وراء الجبال والوديان وأشجار النخيل والآبار.

كان يكثر من الخروج للصيد والقنص. الصحراء لا يحدها البصر. الأفق ممتد بلا نهاية. التكوينات الصخرية شكلتها الطبيعة في ما لا يقوى على صنعه الإنسان.

اختـرق الممـرات بـين الجبـال، والأوديـة. يحفـظ تضاريسـها ومتعرجاتهـا، لا يشـغله إن كانـت الليلـة قمريـة، أم التفـت الأشـياء بالظلمة..

آمن العرب – أيام الجاهلية – بأن لكل إنسان طيراً يعيش ما عاش، ويموت بموته. إذا قتل الإنسان دون أجله، ظل الطائر شريداً، باكياً، معولاً، حتى يؤخذ بثأر صاحبه. الطائر هو "الهامة". تذهب الحكايات إلى أن الهامة لا تستريح حتى تسقى من دم قاتل صاحبها. حتى تقول الهامة : اسقوني!

القاتل هو السلطان، والهامة التي تطلب الثأر هي أبوه، هو من نذر نفسه للقصاص من قاتل أبيه.

تمنـى الحصـول علـى الكلمـة السـحرية، الكلمـة اللغـز، الكلمـة المفتاح، التي تعينه على إنجاز ما ينتظره من مهام وأعمال شاقة، ما سيلقاه من عقبات ومصاعب ومخلوقات شريرة، لا يعرفها، ولا التقى بها من قبل.

لو أنه طائر يحلق في الأجواء إلى الأماكن البعيدة، لا يعرف أين هـي، ولا مـا صـورتها، لكنـه رسم لهـا تكوينـات وملامـح اطمـأن إليهـا، وجـد فيهـا مـا يصـل بـه إلـى السـلطان، فتثـأر الهامـة لناسها، ولنفسها.

لم تكن تشغله مسألة العودة إلى الوطن. فوجئ أن سنه لا تتيح له الإقامة في البلد الذي يعيش فيه.

سكت أبوه عن القول: متى نعود إلى الوطن؟

أدرك الأب – بتوالي الأعوام – أن إقامته في المدينة الساحلية ستطول، وأن العمر ربما لن يسعفه للعودة إلى المدينة المحرمة.

– كما أعرف، فقد اقتصرت سكنى المدينة المحرمة على قبيلة السلطان ..

هز كتفيه:

– للسلطان أن يفعل ما يشاء، ولنا أن نرفض!

روى أبوه عن القادمين من البحر. أغرقت الرياح قواربهم الصغيرة. نزل رجال القبيلة في الأمواج بثيابهم، ينقذون المهددين بالغرق، يعودون بهم إلى الشاطئ، يوفرون لهم المأوى والغذاء. عاشوا في سكينة المواطنة مع أبناء القرية، ثم تبدلت أحوالهم.

أدرك أبناء القبيلة – بعد فوات الأوان – أن القادمين – من البحر، أو من الصحراء – يزمعون البقاء، وليس للإقامة الطارئة.

صارت المدينة مقصد قبيلة السلطان، وملجأهم، ومعقلهم. توسعوا في خططها، وغرسوا، وسكنوا منها ما لم يسكن من قبل. يستأثرون لأنفسهم بأفضل المواقع، على الهضاب والتلال والمنحدرات. يبنون فوقها البنايات الجميلة.

قال الأب:

– بعد أن أنجبت أخواتك الثلاث، أزمعت التوقف عن الإنجاب.

وفي لهجة مثقلة بالحزن:

– وشى تقدم العمر بأن العودة إلى المدينة المحرمة صعبة أو مستحيلة..

وسرت في صوته نبرة محرضة:

– أنجبتك لتحمل هم العودة!

وهز يده كمن يطرد المعنى:

– هذه المدينة ترحب بنا، ناسها طيبون، لكنها ليست وطننا.

وخنق التأثر صوته:

– الوطن يختلف.

قال لأبيه:

- متى أزور مدينتي؟

أشار ببنانه إلى أسفل:

- هذه مدينتك..

- المدينة التي تحدثني عنها.. المدينة المحرمة.

حدجه بنظرة متسائلة:

- اكتف بالسماع والقراءة والمشاهدة، هي الآن مدينة ناس آخرين.

وهو يشير بإصبعه إلى صدره:

- أريد أن أزورها..

- انتهي زمان السير في بلاد الله خلق الله، تحتاج للتنقل بين البلاد إلى وثيقة سفر..

- سأعيد زمان السير في بلاد الله..

- آخر ما ستبلغه حدود هذه البلاد. بعد ذلك حدود أخرى وجنود وتأشيرات دخول.

ظلت الأمنية في داخله حتى قُتل أبوه. ناوشه الحزن في الأيام التالية، ثم تصاعدت الأمنية القديمة فأخذت تفكيره.

طاردته المدينة المحرمة في صحوه ومنامه، هي البدء والمنتهي، يهمه أن يرحل إليها، دون أن يشغله السؤال: ثم ماذا؟!

قالت أمه:

– لماذا استكملت تعليمك مادمت ستذهب في هذه الرحلة؟

– الشهادة العليا لا صلة لها باعتزامي الرحيل..

بدا في عيني الأم عكس ما أظهرته من استياء. وهي تدارى إشفاقها:

– هذا شأنك.

كانت أمه قد روت له الملاحم والسير والحكايات والحواديت، وغنت ما لم يكن قد استمع إليه من أغنيات الماضي، وعلمته ما يواجه به الظروف العادية، والصعبة.

جمعت وجوه القبيلة له أكياساً من الذهب والفضة. اعتذر عن قبول أي شيء. طالبهم بأن يدلوه على الطريق إلى المدينة المحرمة. هي المدينة التي تركها أبوه في طفولته، وإن ظل على معرفة وصداقة بمن لزموا المدينة من أبناء القبيلة. طفولة أبيه والشيخ هادى الصباغ،

قبل أن يفرقهما ما جرى، زادت في حكايات أبيه بعد أن انتقل الشيخ هادى من مدينة المنفي إلى مساحات الخيام حول المدينة المحرمة.

- أعرف أن الشيخ هادى سيرحب أبى!

- لكنك تطلب زيارة المدينة المحرمة؟

- لماذا يرفض الشيخ هادى.. ألم ينشأ وأبى في المدينة نفسها؟

- أبناء القبائل الذين يغادرون المدينة المحرمة، إن لم يكونوا من قبيلة السلطان، يمنعون من العودة إليها.

وشاب لهجته تأثر:

- يفقدون حق العودة.

واتجه إلى الفراغ بعينين ساهمتين:

- ما أريده أن تدلوني على الغابة المفضية إلى المدينة المحرمة!

هي ليست المدينة التي ولد فيها، لكنه لا يعرف وطناً غيرها.

قال أبوه:

- نحن في ضيافة المدينة الساحلية، حياتنا الحقيقية في المدينة المحرمة.

ولـد، ونشـأ، بعيـداً – بـآلاف الكيلـو متـرات – عـن المدينـة المحرمة، لكنه يعيش بالحنين لرؤيتها. الحنين إلى ما لم يره، حركته حكايـات أبيـه وذكرياتـه، واسـتعادته الأحـداث والصـور والملامـح والقسمات ونثار التفاصيل.

عرف الحكايـة منذ طفولتـه، وكبر معها. أضـافت إلى روايات العجائز، وما قرأه عن الأحداث القديمة، والوقائع التي أسقطها الزمن. تختلف عن التي روتها له جدته أعوام طفولته، وأماتته من الخوف: آكلي البشر، والآبار المطمورة على حشرات تؤذى وتقتل، والموتى المستيقظين من قبورهم..

تبلورت أمنياته في أن يصل إلى حيث يقيم السلطان، فيحاسبه على أفعاله..

حمل حاجياته على عمود خشبي، أسنده إلى الكتف الأخرى.

اتجه نحو المدينة المحرمة.

هذه هي المرة الأولى التي يغادر فيها المدينة الساحلية، المرة الأولى التي يتجه فيها إلى المدينة المحرمة. لم يرها من قبل، وإن يعـرف أنهـا وطنـه. عـاش فيهـا الأجـداد والأسـلاف قبـل هجـوم قبيلة السلطان.

أوقف الجد الكبير للقبيلة أمواله وعقاراته وأراضيه، على الصدقات والجوامع والزوايا والتكايا والمكاتب والمدارس والمستشفيات، وما يعين الناس على تحسين أوضاعهم.

أحس أنه يمضى نحو شيء لا يدركه. ثمة قوة ما لا يعرف طبيعتها، تحركه، تدفعه، توجهه إلى حيث ينبغي أن يذهب. تمنى لو أنه اقتحم حجب الغيب. رأي ما يتوق لرؤيته. اختلط في رؤاه النور والظلمة، الخير والشر، الجمال والقبح، الطهر والدنس. حتى الحياة والموت تساويا، فلم ينتصر في داخله لأحد المعنيين.

قال أبوه:

- كنت أتصور أن شيخوختي ستتيح لي أياماً أخيرة، هادئة.. لكن أذاهم لحقنا في بلد المنفي!

مات أبوه على رغبة أن يدفن في أرض المدينة المحرمة. أوصى أن يدفن في الهضبة المطلة على الوادي الكبير. يشقيه أن جثمان أبيه سيظل في الأرض الغريبة. تحلق الروح هائمة، لا تعرف الاستقرار.

أشفق من أن تظل الروح هائمة، تحوم فوق الجبال والوديان وآفاق الخضرة والبنايات. أزمع أن يبدأ الرحلة، ويواصلها، حتى يشاء الله بما قدّر.

مضى في السهول المجاورة للبحر.

لا يتصور أن المرء يفر من قريته، يتركها – بالقهر – للغرباء، فيقيمون فيها. يكتفي برؤيتها في صورة، أو من فوق تل بعيد، أو يتلمس موقعها في الخريطة.

تقاطعت الطرق، واختلطت. لم يدر أي طريق يسلك. الغابة مزدحمة بالأشجار والأغصان المتشابكة.

استعاد نصائح أبيه، الطرق التي ينبغي أن يسلكها، وما يجب أن يحمله من زاد.

أفرد أبوه – أمامه – أوراقاً علاها التهرؤ، وتمزقت من حوافها. امتلأت بالرسوم والألوان المتباينة والدوائر والمثلثات والمربعات والأسماء:

– لن تجد شيئاً على حاله، لكنك ستشم الرائحة التي أفتقدها!

أهمل السؤال: ماذا بعد أن يصل إلى المدينة المحرمة؟

فكر في السؤال لحظات، ثم أهمله عندما لم يجد رداً يقنع به نفسه. بدا دخول المدينة هدفاً في ذاته. حتى زيارة الشيخ هادى الصباغ في الخيام حول المدينة لم تعد تشغله، ولا عنى بالتعرف إلى حياة الناس بالقرب من مدينتهم. مجرد أن يسير في شوارع المدينة

المحرمة وأسواقها، ويتعرف إلى الناس. لم يناقش ما إذا كان سيكتفي – إن أتيح له دخولها – بأيام زيارة، أم يحاول الإقامة فيها، لا يغادرها.

امتدت المسافات التي تخلو منها الأرض من الأشجار، أو التلال، أو ما يمكن أن يستظل به.

طال سيره دون أن يصادف ظل شجرة، أو أثر نبات أو ماء، أو صوت حيوان أو طائر..

لم يعد يدري في أي اتجاه يمشي، وإن حرص أن يضع في ذهنه ملامح الطريق كي يستطيع العودة منها.

أدرك أن الطريق الطويلة قد لا تفضي به إلى أي شيء. أمضى الكثير من الليالي داخل الأكواخ، وشارك أهل القرى جلساتهم على المصاطب. غربت الشمس، وأشرقت. واصل السير في الطرقات المعبدة والوعرة، وفي الأحراش والغابات والمروج والأدغال. إذا حل المساء، ألقى بالصرة وراء ظهره، واهتدى بالقناديل أمام أبواب البيوت والدكاكين، ومضى يجوب الشوارع الضيقة، المتقاطعة، والحارات..

عبر الجداول، وارتقى التلال، والجبال الصخرية، الوعرة، تغطى قممها ضبابية شاحبة. اخترق الطرق الرملية، والترابية، والحفر،

والمنحنيات، والممرات، والشعاب، والمجازات. انحدر في السهول والوديان.

تعرج الطريق، والتوى، وصعد نحو قمم الجبال. الجبال والوديان وكروم العنب والتين والزيتون. كان يبحث عن الظل في فجوات التلال، وتحت الأشجار. إذا اشتد صقيع الليل، حشر جسده في أوراق شجرة، وتغطى بها.

عانى السير على المنحدرات الصخرية، تتصاعد بالبرودة، وبالحرارة اللاهبة.

فكر في أن يرسم علامات يحدد بها الطريق، لكن المشاهد ظلت على حالها، لم تتبدل: الأشجار، والطرق الترابية، والتلال والأصوات الساكنة، والأعشاب، والأزهار البرية، وزراعات الخبيزة، والحمصيص، والزعتر، والأقحوان، والحنّون.

صادق المساء، والنهار، والليل، والشمس، والقمر، والريح العاصفة، والرمال ، والصمت، والتعب، والعطش، وتراقص ضوء القمر فوق ماء النهر، تداخل الألوان الذهبية والحمراء والنيلية.

فضل – تفادياً للتوقعات – أن يسير في الليل، يلوذ بالأماكن المختفية عن الأعين. يعبر ما بين التلال والجبال والهضاب. يجتاز

القنوات. يكثر من التلفت حتى لا يتوه في الشعاب. قد يلوذ بتجويف في داخل صخرة، أو في باطن جبل.

أدرك أن عليه أن يطعم نفسه بنفسه، مما يلتقطه من ثمار الشجر، أو يصيده من الحيوان أو الطير أو السمك.

حاول تفادى الذئاب والثعالب والأفاعي. دل القوافل التائهة على الطرق التي تتجه إليها، واختفي في الكهوف، ووراء الأشجار، هرباً من قاطعي الطرق.

رأي في السماء نوعاً من الطيور لم يسبق له مشاهدته. حدس أنها الطيور الآكلة اللحوم. أجاد السلطان تربيتها في أقفاص من الحديد، وقصر طعامها على لحم البشر.

شعر أن قواه تخونه، لا تساعده على الوصول إلى المدينة التي يثق بقربها.

تلفت، يبحث عن مكان يستظل فيه، تحت الأشجار، وفي الكهوف والمغارات وفجوات التلال. إن كان الجو صحواً، تمدد في الخلاء تحت السماء المكشوفة.

استلقى في ظل شجرة زيتون معمّرة. تعلوه زقزقة العصافير، وتترامى إليه نسمات الليل المحملة بروائح الزنبق والسوسن واللقاح. من فوقه السماء بزرقتها الصافية. أفقها إلى داخل مدينته. طال

استلقاؤه تحت ظل الشجرة في تقاطعات الطرق، يفكر في الطريق التي يسلكها.

حدثه أبوه عن الرائحة التي تميز المدينة المحرمة. وهو يغالب حزنه: لا تفارق أنفي منذ أجبرت على الرحيل، لا أستطيع تحديدها، لكنني أميزها، وأتعرف إليها في لحظة ما، ربما أكون فيها بعيداً عن المدينة المحرمة بمسافات بعيدة.

حذّره من أن الأرواح والأشباح، وربما العفاريت، جزء من الحياة في الغابة. أعداد لا حصر لها. بعضها يؤذى من يراه، أو يغيّبه.

رأي – في ظلام الغابة – أشباحاً متماوجة.

أعاد التحديق.

بدت كالأطياف النورانية، تتحرك من حوله، تحلق، تطير، خيالات، أو أطياف بيضاء. لا تصدر أصواتاً على أي نحو، لا نداءات، ولا أغنيات، ولا دعوات، ولا همسات، وإن ميز موسيقا جميلة، خافتة، تتناهي من موضع قريب.

راح في النوم.

تجسدت له مخلوقات الطيف عيوناً وأنوفاً وشفاه. تأكد أنه يرى ما يُرَى بالفعل.

حلقت الأطياف – راقصة – حوله. تقترب، وتتباعد، وتمضى في الأفق، ميزها ، وإن لم يتبين التفاصيل.

خمن من استدارة الجسد وتكوراته، ومن الغلالة الحريرية التي ارتداها، أنه لفتاة. توسطت الساحة الترابية المستديرة، وبدأت في الرقص، تتمايل، تتأود، تتثنى. من حولها الأطياف الأخرى. التصفيق يعلو في إيقاع منتظم. تداخل في إيقاع التصفيق تشابك أصوات ليست من البشر. تداخلت الكائنات من حوله. بدت مثل مخلوقات الخرافة. أدرك أنها لكائنات الغابة، تشارك الأطياف رقصتها.

ازدحمت الغابة بالأجساد الطيفية. رأي الأشباح والخيالات والأرواح فوق التلال والهضاب والأشجار، ووسط الأودية وشعاب الجبال ومنعطفات الدروب..

كلمته الأطياف..

علمته ما كان يحتاج إلى تعلمه من التاريخ القريب والبعيد، وأصول الأسر والعائلات، واختلافات الرأي، والخصومات الشخصية، والمعارك التي تركت تأثيراتها، وتقاطعات النواصي، ولافتات الطرق، والميادين، والساحات، والأسواق، والشوارع، والحدائق، والبنايات، وأحوال الجو..

اتجهت الأطياف ناحية الفضاء البعيد. لم يعد سوى أصداء عباراتها المنغمة، وابتهالاتها، وتسبيحاتها.

منحه اللقاء بكائنات الغابة روحاً جديدة.

لم يعد يخشى الأطياف، تتابع قدومها وانصرافها، تحليقها في سماء الغابة، تقافزها بين الأشجار، جلوسها على ضفاف الجداول والقنوات. تتكلم، وتعبر بيديها وملامحها. يصيخ السمع في إنصات سادر، يتلقى ما يهمه سماعه. يسأل، ويتلقى الأجوبة، يستوضح ما قد يكون غامضاً، يستشرف الخطوات التالية.

صارت الأطياف جزءاً من وجوده، وترددات أنفاسه. شعر أن بداخله من القوة ما يجعله سلطاناً على العالم، وأنه يستطيع أن يقاتل البشر والحيوان والكائنات المتوحشة. شعر بما يشبه النور ينبعث من داخله. يفيض على ما حوله من بشر وكائنات.

بوسعه أن يخلف المدينة وراءه، ويمضى نحو المواضع التي أقام فيها السلطان قصوره. حلم بالمدينة قبل أن يتطلع إلى رؤيتها.

تعلم معنى الرؤى.

الفصل الثاني

لم يكن السلطان – في روايات أبيه – أول من غزا المدينة المحرمة. سبقه سلاطين آخرون قدموا من بلاد قريبة وبعيدة.

شاهد أفراد القبيلة وهم يخرجون للرعي، ويزرعون القمح والشعير، ويربون الماشية. ويصيدون الصقور والنسور والشواهين.

كانت القبيلة تسكن مناطق الخضرة المتناثرة بين الجبال. التلال الخضراء، الخيام المتناثرة وبيوت الطين والعيدان والقش، البراري، الهضاب المطلة على الوادي، آبار المياه..

صار ما لقنه للسلطان حكماء القصور جزءاً من تكوينه. لا تشغله الأسئلة، ولا المناقشات، ولا إبداء الملاحظات. في باله الكثير من حكايات الكتب الصفراء، تتحدث عن أنهار اللبن والعسل المصفي. أجاد أبناء قبيلته تعلم فنون الكهانة والتبصير والسحر والشعوذة.

أرسل أعوانه إلى مضارب القبائل من حوله. حاول أن يستميل الرؤساء والشيوخ والعلماء وأصحاب النفوذ والتأثير في نفوس العوام.

طـاف رواتـه بالأسـواق والمقـاهي والسـاحات والخيـام. يترنمـون بمناقب السلطان، ويؤلفون القصائد التي تهبه الحق في ما يقولـه أو يفعلـه. اشترى الذمم، ومن يسعفه خيالـه بـاختراع الحكايات. اخترعوا السير والحكايات، وثقوها بالإسناد، وبالنوادر والوثائق.

تقوت قبيلة السلطان الصغيرة بأفراد قبائل من مختلف الأصقاع. أقنـع نـاس قبيلتـه، ونـاس القبائـل الأخـرى، أن العـيش فـي المدينـة المحرمة وما حولها، لن يتحقق إلا بالقوة، واللجوء إلى العنف، والأخذ بمنتهي الشدة، وفرض الطاعة والنظـام علـى مـن يريـدون الفوضـى. وعـدهم بأنهـار اللـبن والعسـل، والثمـار المختلفـة الألـوان، والأشـجار الفينانة، والأطيار الصادحة، والجواري المغنيات الراقصات.

أغار جند السلطان على مضارب القبائل المحيطة. اقتحموا حياة القبائل من قلب السواد. استولوا على الكثير من الأراضـي والبنايات، دون أن يعترضـهم – أو يمنعهم – أحد. ضمها السلطان إلى المدينة المحرمـة. حملوا كل مـا فـي الـدور مـن أثاث ونقود وملابس. حملـوا حتى ما لا فائدة منه.

تمددت المدينـة، واتسعت مساحتها، ابتلعت مـا حولها من مدن صغيرة وقرى.

أخضع السلطان جميع القبائل لحكمه. صارت له الكلمة العليا على القبائل والقيادات والناس العاديين. انطلقت سيادته، لا ينازعه فيها أحد، ولا يناقشه مخلوق فيما يصدر من أحكام ومراسيم. عرف عن السلطان أنه يستطيع سماع طنين ذبابة وموضع طيرانها، وتناهي صوت سقوط ورقة على الأرض. في يده إطلاق الأرزاق وقطعها، يأذن بترددات الأنفاس، أو يسكتها، ولم يكن أحد من القبائل يعرف لون عينيه.

روى أنه - بتأثير السحر - يتحول - أوقات الخطر - إلى تنين هائل، ينبعث اللهب من فمه، والنار في زفيره، وأذرعه أخطبوطية.

امتدت سطوته إلى نهايات الجبال والوديان والبراري والغابات والقرى البعيدة والفيافي والروابي والتلال والمراعى والروافد الصغيرة والقفار الخالية.

بدا كالليل الذي يصعب الفرار من ظلمته.

بعد أن استولى السلطان على المدينة، أمر بمحو أسماء رؤساء القبائل وشيوخها من السكة، وعدم الدعوة لهم على المنابر، وأن يقتصر اسمه على نقش السكة، والدعوة على المنابر، لا يقاسمه

مكانته أحد. من ينكر ما يروى عن ماضي جماعة السلطان، فهو عرضة للعقاب. يبدأ بالقتل، وينتهي به.

اعتز بحاله، وكثرة أعوانه، ومناصريه، وانتشارهم إلى ما بعد حدود المدينة المحرمة. توقع أن تمتد مدينته إلى مدن أخرى محرمة عليه، وعلى أعوانه. يقتل أهلها، ويدمر ما يملكون.

أدرك السلطان أن المدينة المحرمة تحتاج إلى ما يسوغ اقتصارها على الخاصة من أبناء قبيلته، والخاصة من أبناء القبائل المناصرة لها. الأمراء والوزراء وقادة الجند والكهنة. قصر الإقامة فيها على جنده وأعوانه وأبناء قبيلته. أبناء القبائل الأخرى يترددون عليها للزيارة. الفرجة – وحدها – هي ما يملكون، للتعرف على ما تحقق في المدينة المحرمة مما لم يخطر فى بال أحد. تغلق الأبواب نهاراً وليلاً، لا تفتح إلا لأبناء قبيلة السلطان، ولمن يحمل تصريحاً من أبناء القبائل الأخرى، حتى الذين أمضوا حياتهم في المدينة المحرمة، بالدخول إلى حرم المدينة..

أحاط المدينة بالأسوار، جعل حول الأسوار خنادق عميقة، واسعة، تتناثر – من خلفها – القلاع والأبراج والحصون والمزاغل. قالت روايات إنه جعل على أبواب المدينة المغلقة طلاسم تكشف من يفلح في التسلل.

بذل السعي لكي تصبح المدن القريبة، والضواحي، والقرى، داخل حدودها، وتخضع لإرادتها. أمر بأن يغادر أفراد قبيلة الصباغ المدينة المحرمة. لا يهم حتى لو كانوا من مواليدها. تقتصر الإقامة في المدينة على قبيلة السلطان، والقبائل المنتمية لها. يزورها أبناء قبيلة الصباغ، فلا يتاح لهم الإقامة، أو مجرد العيش لمدة طويلة، وإن تمتعوا بحق المشاهدة والعبادة والبيع والشراء واكتساب الصداقات..

يشقيه التصور أن أفراد القبائل سيمتطون الجياد – ذات يوم – ويركبون العربات، ويمضون في اتجاه مدينتهم القديمة، مدينته المحرمة. يتهاوى كل ما خطط له، وأعده، فلا يظل في المدينة سواه هو وأعوانه..

معظم البنايات أوقاف. لا يجوز – من الناحية الشرعية – بيعها وشراؤها. حتى لو أراد أبناء القبائل أن يتنازلوا – بالبيع – عن ممتلكات ورثوها، فذلك ما يرفضه الشرع..

عرف عن أبناء قبيلة السلطان أنهم اكتفوا بالرعي، دون أن يعملوا بالزراعة.

جعل السلطان همه أن تتحول القبيلة من الرعي إلى الزراعة، تذوى صور البداوة وصيد الغزلان والأسماك والطيور، وسكنى الخيام، وغياب الاستقرار..

لكن الأراضي المجدبة تحولت إلى مساحات من الخضرة. لم تكن الزراعة هي الهدف، وإنما السيطرة والتوسع، وتحقيق ما تؤكد الوثائق أنه يملكه.

جعل – وسط الساحات – آبار واسعة، يجرى منها الماء في قنوات إلى البنايات، داخل المدينة المحرمة. الآبار التي تحتاج إلى تطهير، أو يؤثر فيها الزمن، تظل على حالها. الأوامر محددة بحفر آبار جديدة.

امتدت الأراضي، وغابت حدودها. تحدها وقفة جنود السلطان، وليست الأسوار أو الأسلاك الشائكة، أو حتى الخطوط المرسومة على النهايات. البيوت المبنية بالآجر المحروق، والقلاع ذات الأبراج، والحصون، والشوارع، والساحات، والميادين، والأسواق.

الفصل الثالث

صـــدمته مفـــارق الطـــرق، وتشـــابكاتها، وتقاطعاتهـــا. لـــم يـــدر أيها يسلك؟

بـــدت المســـالك وعـــرة بـــين سلاســـل الجبـــال المتواليـــة، وشـــقوق الصخور التي يصعب السير فوقها.

أجهـــده الســـير فـــي الأرض الرمليـــة، المنخفضـــة، تتنـــاثر فيهـــا الحشائش البرية.

طـــوى القفـــار والوديـــان والغابـــات والأدغـــال والطـــرق الطينيـــة والأنهـــار، ومـــا بـــين الجبـــال والســـهول والوديـــان والقـــرى والمضـــارب والبيـارات والـتلال والوهـاد والأخاديد والمنعرجـات والشـعاب المتداخلـة وحدائق الزيتون والكثبان الرملية والأشجار وجداول المياه، والمنحدرات الصخرية تنبسط أمامها الخضرة والجبال البعيدة، إلى امتداد الأفق.

عانى البرد والحر والغبار والتراب. يعذبه صقيع الليل ، وحرارة الشـمس، وسـخونة الرمـال، وتوقعـات الأذى. ربمـا نـزع ثيابـه، ونـزل النهر، يزيل مـا علـق بجسده من العرق والغبار والتعب. قد يجلس تحت ظل شجرة، ليحمـى نفسـه من لسعة الشمس، أو يتخذ من أحد الكهوف بيتاً يأوي إليه أول الليل. يتركه في قدوم الصباح.

مثل اسم المدينة المحرمة في داخله دافعاً يمضى به إلى حيث يلتقي بناسه.

ثمة أصوات تناديه من بعيد. صعب عليه تبين موضعها في داخل الغابة. انطلق نحو دنيا تخيل ملامحها، أو أنها ذات ملامح غائبة. تحول إلى كائن أشبه بما تتحدث عنه الحكايات والسير والملامح والحواديت.

يشعر أن شخصاً ما يتعقبه. يعاود التلفت، ثم يمضى إلى الأمام بخطوات أسرع. أعد نفسه لمقاتلة العفاريت والمردة والجان. حتى الشياطين، إن ظهرت له – سافرة – في الطريق، فلن يتردد في مقاتلتها.

الطرق المتعرجة بين الجبال، تصعد القمم، وتهبط إلى الوديان المتناثرة في مدى البصر، تتخللها الأنهار والشلالات ومساقط المياه والأدغال والأشجار والنباتات والأوراق المنداة والأزهار والطيور والفراشات الملونة.

هل ينتهي الزمن الطويل في البحث عن السلطان إلى لا شيء؟

***

لمحها أسفل الوادي، بالقرب من قطعان الماشية. أدهشه وجودها بمفردها، رعايتها للماشية في هذا المكان المنعزل على حدود الغابة..

كانت الماشية ترعى، والفتاة تجمع الأعشاب والثمار والحطب والأخشاب الجافة من حواف الغابة. بدت له مثل سندريلا الصغيرة في قلب الحكاية الجميلة.

تاهت نظرته في جمالها، كأن وجهها على صورة القمر ليلة البدر..

لم يكن قد رأي مثل هاتين العينين السوداوين، الواسعتين، من قبل، ولا الرموش الطويلة تزيد من عمق عينيها، ولا الشعر الحنطى، الحريري، المنسدل على الكتفين، ولا الأنف الدقيق، ولا الشفتين الورديتين.

بدت له أجمل الفتيات اللائى قابلهن في حياته، كأنها ليست من هذا العالم. ليست من نساء العالمين. كأنها هبطت من السماء، أو أنها حور عين. اجتذبه جمالها تماماً. تدلى من أذنيها حلق مدور من الفضة، وارتدت عقداً من الخرز الملون، ولفت ثوبها الأسود المنسدل إلى القدمين بحزام أخضر عريض.

أحست الفتاة بنظراته تلاحقها. اتجهت ناحيته بنظرة ألهبت ما لم يستطع تفسيره، ولا فهمه، في أعماقه.

ألقت ما بين يديها من الحطب، وشهقت بعفوية..

هز يده في الهواء كي يطمئنها:

- لا تخافي.. أنا صديق، ووحيد..

ظلت نظرة الخوف في عينيها، وهي تتراجع بصدرها، ثم مالت - يعروها ارتباك ، وهي تتعثر في خطواتها - إلى داخل الغابة..

مسح بعينيه الغابة المتشابكة، يتصور أين اختفت..

- أنا لست من هنا.. أريد أن تدليني على المكان الذي أقصده..

ظل الصمت سادراً.

مضى خطوات إلى داخل الغابة. لم تتناهي أصداء خشخشة، ولا حركة حيوان، أو طير. أدرك أن الفتاة لاذت بمكان تعرفه، ولن يستطيع الوصول إليه..

اختفت الفتاة كأنها لم تكن. كأن الأرض ابتلعتها، أو اختطفها طائر، أو تلاشت كحلم، أو تبخرت مثل أمنية مستحيلة. لكن الطيف لم يتركه. ظل ماثلاُ أمام عينيه، يخايله، يظهر ولا يختفي. لا يبصر حتى ما ينظر إليه. شغلته عن نفسه، وعن الهدف الذي خرج إليه. هي شاغله، وما يحل بدلاً من كل المرئيات. صورتها ماثلة أمامه وهي ترعى الماشية، وهي تلتقط الثمار من أشجار الغابة، وهي تغتسل في النهر..

حدق في النهر. رأي الطيف يتماوج فوق مياهه. صار مسحوراً ومفتوناً بها. هو مسكون بحبها، ملكت عليه ذهنه ووجدانه. تسللت إلى أعماق نفسه..

واصل التحديق في النهر والشجر والعصافير والفراشات وهدأة الليل. يصحو على أحلام مفعمة بقطرات الندى وأجنحة الفراشات الملونة وضوء القمر ودفء شمس الشتاء. هو دائم الاستدعاء لطيفها. يأخذ منها ويعطى. ربما سرقه الوقت في أحاديث لا تنتهي، يعيده إلى الحياة من حوله، وإلى نفسه، صوت طائر، أو صرير جندب، أو سقوط ثمرة من الشجرة التي يجلس تحتها.

وقف على عالم من السحر. الفتاة تمتلك مفتاحه. سلبته روحه ووجدانه. أذهلته عن نفسه. تعلق بها كما لم يحدث مع فتاة أخرى من قبل.

براءتها الظاهرة أجمل ما اجتذبه إليها.

لزمه طيف الفتاة، لا يفارقه في ليل أو نهار. يشم رائحتها في أرجاء الغابة. ينام على ملامحها، ويصحو عليها. يكتفي بالنشوة لإحساسه أنها بالقرب منه، لا يراها، وإن كانت تراه.

شعر أن عليه أن يمضى وراءها إلى حيث تذهب. هو في حاجة إليها. لا يستطيع أن يحيا بدونها. تغيب صورتها عن ماضيه

وحاضره، لكنه لا يتصور غيابها عن أيامه القادمة. امتلكه حبها فلا يقدر على دفعه، ولا حتى مجرد أن ينفض معانيه عن رأسه..

لم يشغله السؤال: من هي؟ ولا إلى أي القبائل تنتمي؟ ولا إن كان وجودها في الغابة مجرد مصادفة، أم أنها تأتى دائماً لرعى شياهها؟

مضى في الغابة، وإن ظل طيف الفتاة يراود خياله، يستعيده في قلب الغابة، وبعيداً عنها. لم تختف الفتاة من عينيه، يتسلل طيفها إلى صحوه ومنامه، يجرى حوارات معها، بينه وبين نفسه.. تحدثه عن الأشجار والحيوانات والطيور والزواحف وليالي الغابة الباردة، المظلمة.

اخترق الجبال والسهول العريضة والروابي الصغيرة والتلال والمروج الواسعة المغطاة بالحشائش والأعشاب. ألف الحياة مع النسور والصقور والثعابين والعقارب والضفادع. خاض في المستنقعات. صادق الرعاة، وصيادي الطيور، والباحثين عن الثمار المتساقطة، والأعشاب.

شعر أنه يبدأ حياة جديدة، تتصل بالحياة التي كان يحياها، وما يشغله، لكنها لابد أن تختلف في كل ما يمضى إليه.

الفصل الرابع

سأل الراعي الشيخ المسترخي تحت ظل شجرة:

– أي مدينة هذه؟

أشار إلى البنايات الممتدة في أسفل الوادي.

قال الراعي وهو يفرك عينيه:

– هذه هي قرية البركة. أول الطريق إلى المدينة المحرمة.

داخله شعور بأنه قد رأي العجوز من قبل: القامة الطويلة الضامرة، العينين الغائرتين وإن ظلتا على صفائهما، الخدين المتهدلين، البارزي العظام.

زال تردده في ألفة الملامح والتصرفات. كأن اللقاء موصول بلقاءات سابقة، لا يذكر أين، ولا متى.

قص على الراعي الشيخ كل أخباره. ما جرى له منذ غادر المدينة الساحلية، البعيدة، حتى وقف على أبواب المدينة المحرمة. روى كل ما شاهده، وما استمع إليه. لم يفلت شاردة ولا واردة..

قال له الرجل:

– السلطان يقيم في المدينة المحرمة، لكن جنوده يقيمون في غير موضع محدد.

ونفض كتفيه في لا مبالاة:

- السلطان بمفرده لا يساوى الكلمات التي يجاهر بها..

وأشار بيده في دورة بعرض الأفق:

- إنه يخطط حتى يصل سلطانه إلى أبعد البلاد وأصغرها.

واحتضنه بنظرة مشفقة:

- إذا أردت أن تحقق ما يشغلك فاذهب إلى الخلاء، أو إلى المدن والقرى خارج المدينة المحرمة..

لم يكن قد رأي المدينة من قبل، وإن اطمأن إلى قول أبيه إنه ليس وضيع الأصل، ولا مجهول النسب. أصله ونسبه في المدينة المحرمة.

قال الأب:

- أنت تذهب من بلاد الغربة إلى قريتك، وليس العكس..

استطرد يفسر نبرته الصارمة:

- فلتشعر بذلك في أعماقك لتسهل عليك الرحلة!

تمنى أن يجد في المدينة ردوداً على كل الأسئلة التي تشغله منذ وعى ما حوله، ما صمت أبوه عن إجابته، وما تحدث فيه بما يرضى فضوله. ربما وجد المعنى لكل ما يشغله.

حذره أبوه من المكائد والمصائد التي تترصد له خارج المدينة. أعوان السلطان مبثوثون في الشوارع، والأسواق، والميادين، وأمام دور السينما والمسارح والمكتبات، وفي الحدائق، وفوق الأسطح والمآذن، وخلف الشرفات والنوافذ.

قال الشيخ:

– قلت إنك من أبناء المدينة المحرمة؟

وهو يهز رأسه:

– هذا صحيح..

– كيف إذن لا تعرف الطريق إليها؟

– صارحتك أنى لم أرها حتى الآن.

– دعني إذن أرافقك إلى داخل المدينة.

استطرد في لهجة متعاطفة:

– أخشى أن يؤذيك الجنود.

أشاح بيده كمن يطرد المعنى:

– أعرف الأماكن كراحة يدي..

لم يخف قلقه:

– لكنك ولدت بعيداً عنها.

ثم وهو يربت خده:

– فلتخف على نفسك!

كانت الشمس قد آذنت بالمغيب. توهجت حمرتها فوق التلال، وفي مدى الأفق. عرف أنه إذا لم يصل إلى أبواب المدينة المحرمة قبل الليل، فلن يتاح له دخولها.

بعد أن خلف الجبال والتلال، لاحت له أودية تناثرت فيها بيوت كثيرة، ذات نسق موحد. طابق أو طابقين من الطوب الأبيض والأسقف القرميد.

أدرك من تقارب البنايات الصغيرة ومساحات الخضرة، أنه قد اقترب من المدينة المحرمة. أعد نفسه للوصول إليها. غابت عنه المدن التي تسبقها، أو تحيط بها..

لاحقته الأطياف، لازمته، حلّقت أمامه، وفوقه، ومن حوله. تراقصت، وشدت بما لم يتبينه من أغنيات وتسابيح وابتهالات وأدعية.

أسرع في خطواته، حتى انتهي إلى جبل يطل على المدينة..

نظر من فوق الجبل المحاط بأشجار الزيتون والبرتقال والجوافة ومساحات الخضرة، على امتداد المدينة بين الواديين، الشوارع الصاعدة، والمنحدرة، الجامع الكبير بقبته المميزة، المآذن، أبراج الكنائس، البيوت ذات الأسقف القرميدية.

يثيره – ويحزنه – امتداد المدينة في أسفل، دون أن يقدر على الهبوط إليها، ودخولها. السهل عميق تحت مستوى البحر. النهر هو الطريق الوحيدة لدخول مدينة القصور. على ضفتيه أسوار المدن القديمة والأطلال.

أضاف إلى ما حمله "بوصلة" تحدد له الطريق إلى المدينة المحرمة. تكرر تحسسه لبطاقة الهوية داخل الجيب على الصدر. أعاد نطق كلمة السر حتى تيقن من حفظها. يهمل أسئلة الجنود في مدخل المدينة ، ويكتفي بنطقها. يفسحون له الطريق، بلا أسئلة، ولا ارتياب، ولا مطاردة.

لجأ السلطان إلى كل ما يقصر الحياة في المدينة المحرمة على أبناء قبيلته: الترحيل الصامت لأبناء القبائل الأخرى، مصادرة الأراضي والبيوت، سحب الهويات، التضييق على عمليات الدخول والخروج، الحد من تحركات غير المقيمين، شق الطرق الالتفافية، فتتمزق أوصال المدن والقرى.

قال له الشيخ وهو يودعه:

- هذه الأوراق كالصحيحة، لكن لا تبرزها إلا في حالة الضرورة!

كان الطريق - إلى المدينة المحرمة - مغلقاً أمام حركة المرور. بدا الطابور طويلاً من أمامه، ومن خلفه، والتحرك بطيئاً، والحقائب والأكياس في الأيدي، والصمت سادراً في اتجاه نقطة التفتيش..

استعاد نصائح الشيخ بألا تستفزه محاولات الإذلال من ورديات المراقبة وجنود الحواجز الأمنية..

- ما يريدونه هو التضييق علينا. أن تصير الحياة جحيماً لا يطاق، فنضطر إلى ترك بيوتنا!

داخله - وهو يتطلع إلى أسوار المدينة - شعور أقرب إلى الرهبة والخوف. بدت القلعة - بأبراجها وكواتها وقبابها العالية - كأنها حلم ينبثق في ضبابية شفيفة، تحيط بها، وبمساحات غير محدودة من المدن والقرى المتصلة بها، أسوار عالية من الصلب والأسمنت. تعلو الأسوار - حولها - أضواء كشافات، وقناصون آليون، وعدسات على مسافات متقاربة. أدرك أنها تصور من يحاول التسلل إلى داخل المدينة. تأمل عبارة "خطر الموت.. منطقة عسكرية".

تتـاثر الجنـود يحرسـون مفـارق الطـرق، وتقاطعاتهـا، ومـداخل الأسواق، ومحطات القوافل.

كـان الجنـود يصـرخون فـي الفوضـى، الـدوريات تسـتوقف المـارة والسـيارات والـدواب. يـأمرون بـالوقوف فـي صـف. يفتشـون الحقائـب، وتلفت النظـرات، والارتبـاك، والملابـس الشخصـية، وارتعاشـة الأيـدي، والهمسات.

يتأملون الأوراق. يدققون في وثائق الإثبات الشخصية. يسألون عـن الوجهـة: مـن تقصـد؟ لمـاذا؟ كيـف نصـدقك؟.. ثـم يـأذنون بمواصلة السير..

ظلـت نظراتـه إلـى أسفل، حتـى لا يصـطدم بمـا قد يوجهـه إليـه الجنود من نظرات الريبة..

أذنوا له بالدخول، دون تمعن في هويته. لم يلحظوا حتى الخوف الذي وسم ملامحه وهو يخرج بطاقة الهوية من جيبه، ويضعها تحت عيني الجندي، ويعيدها إلى مكانها.

لم يكن في المدينة من يلتجئ إليه..

حدثه أبوه عن المدينة، ولم يحدثه عن شخصية، أو شخصيات، يلتقـي بهـا. استقبلته الشوارع والميـادين والمحـال واللافتـات والباصـات وأكشاك الصحف وإشارات المرور..

أوغل في السير..

أخفق في التعرف إلى معالم الطرق وأسماء الشوارع. أخذه التأمل، ما كان قد رآه على الخريطة، وشحب تصوره أنه سيراه – ذات يوم – على الطبيعة. أذهله التأمل عما حوله. أدرك أنه بحاجة إلى من يدله على الطريق. كيف يصل إلى قصور الحاكم، وإلى مقار قيادات الجند، وإلى المعسكرات خارج المدينة؟

صعب عليه أن يعيش كالغريب في بلده. ما يثق أنه بلده، يراه رؤية العين للمرة الأولى، لكنه يحفظه جيداً من حكايات أبيه، ومن هم في مثل سنه، ومن القراءات.

هذه هي المدينة المحرمة، ربما يلتقي فيها بمن يتذكره، أو يتذكر الماضي المتلاشي. المدينة واسعة. يتوسطها قصر كبير، من حوله ميادين وشوارع متقاطعة، على جانبيها البنايات تمضي بلا نهاية. صور الملوحين بأيديهم ، وبالسلاح ، على شرفات البيوت، وواجهات المحال، وتقاطعات الشوارع، يستعيد بها ملامح الأطياف التي التقى بها في داخل الغابة.

مضى – يحرص ألا يلفت الأنظار، أو يثير الانتباه – في الشوارع والميادين والأسواق والأنفاق. تأمل البنايات والمساجد القديمة والساحات ودور السينما والمسارح.

اللافتات الخضراء والبيضاء على نواصي الطرق والمفارق، تذكر أسماء القرى والشوارع والميادين، وتشير إلى اتجاهاتها. لكن الشعور داخله أنه يدور في حلقات متصلة، لا تنتهي. كل شارع يسلمه إلى شارع آخر، فشوارع تالية، مفارق وتقاطعات، لا يعرف – وهو يخترقها – إن كان يمضى إلى وجهته الصحيحة.

خشي – إذا توقف للسؤال – أن تفضحه لغته، أو لهجته.

داخله إحساس بأنه يسير في مدينته. هذه هي رؤيته الأولى لها، لكنه ينتمي إليها، يعمق من إحساسه حكايات أبيه، وما قرأه، وشاهده في جهاز التليفزيون.

خالف – في الأوقات التالية – ما قطعه على نفسه، فأكثر من التلفت.

حكي له أبوه عن أيامه في المدينة المحرمة، والمدن والقرى حولها: المقهي على ناصية الشارع العمومي، بائع الكتب القديمة أول الطريق الصاعدة، التلال المحيطة بالجامع الكبير، البيوت ذات الأسقف القرميد تعلو التلال في تدرج، النوافذ المشابهة للمشربيات في البيت ذي الطوابق الثلاثة، الكتّاب أسفل الجامع القديم.

كل شيء تبدل، البشر وكروم التين ومعاصر الزيتون والبنايات والشوارع والميادين والمقاهي واللافتات والأطباق الفضائية. حتى

المقاهي فقدت طابعها، ما يشابه طابع المقاهي في المدينة الساحلية. حل – بدلاً منه – ما يختلف في صورة المكان، ونوعية الرواد، والجوامع قلت إلى حد الندرة.

لو أن أباه كان معه، وفتش عن الأماكن التي تعيش في داخله، ربما أخفق في التعرف إليها.

لكن الأشياء – عكس نظرات الناس – بدت أليفة، وقريبة إلى نفسه. شعر بالانتماء إليها، وأنها ليست غريبة عن عينيه. تولد في داخله أنه سوف يجد من يعرفه، ويناديه باسمه. ظلت الوجوه على صمتها.

أحزنته النظرات الخالية من التعبير، أو المتطلعة بنظرات متسائلة. لم يجد من يعرفه، ولا يتذكره، ولا حتى من يرد عليه سلامه.

الوجوه – من حوله – لها سحن البشر. أعين وأنوف وآذان وأفواه، وثمة رجال تميزهم خطوات مهرولة، يرتدون ثياباً سود، ويطلقون لحاهم، وتتدلى خصلات الشعر من قذالهم وسوالفهم، وعلى رءوسهم قبعات عالية سوداء.

يعبرونه، لا ينظرون ناحيته، ولا يتجهون إليه بالسؤال، ولا يعنون حتى بالرد على أسئلته.

فضل السير في أوقات الزحام، الشوارع الخالية تغرى بالمراقبة، الزحام لا يثير الانتباه، نظرات الناس والتفاتاتهم تتجه إلى غير المكان الذي يتحرك فيه. لكنه لزم السير جانب الجدران، لا يتلفت، ويتحاشى اصطدام نظراته بما يربكه.

أحزنه شعور الغربة.

الفصل الخامس

فطن إلى أن رحيل القبيلة كان مفاجئاً. ثمة آثار نيران منطفئة، ومزق ثياب، وأوعية، وأوراق، وبقع دماء.

عرف أن جند السلطان أجبروهم على الرحيل. قوضوا الخيام، ودمروا، وقتلوا..

رحلت القبيلة إلى حيث لا يدري أحد، أُجبرت على الفرار من قبضة السلطان وبطشه.

مضى إلى الخلاء حيث انفرد بنفسه. تكلم مع المخلوقات الجميلة. دلّوه على الموضع الذي اتجهت إليه القبيلة، وإن اعتذروا – لاعتبارات الكشف – عن مرافقته. زودوه بكلمة السر التي تفتح أمامه المغاليق، وتكشف ما قد يلقاه من المصاعب والعقبات. استأمنته على أرواح من لم يغتاله القتل، ووعدوا ببحث الأمر، وما يريده السلطان لقاء تأمين أبناء القبيلة على أنفسهم.

فكر في أن يكتشف المكان. يربط بين التصور والواقع.

تخطى التقاطعات والمفارق والمنحنيات. ساعده على الاهتداء إلى الموضع الجديد الذي لجأت إليه القبيلة، بقع الدم الهائلة، المتناثرة بطول الطريق، وما تبقى من عظام وجماجم. كل شيء يحمل آثار

المعارك: البنايات المتهدمة، الواجهات المثقوبة بالقذائف والرصاص والشظايا، قطع الأخشاب، نثار الزجاج، أنقاض الحجارة، بقايا الجدران المتناثرة، الجدران المتفحمة بالسواد.

تمنى أبناء القبائل أن يتركهم جنود السلطان في حالهم، يرعون الماشية، ويزرعون، ويغمضون أعينهم بالطمأنينة. تطلعوا إلى نور العدل وأحكامه، والتخلص من الأوامر والنواهي الظالمة، والمجحفة. إلى عالم يسوده العدل، يتساوى فيه كل البشر.

أظهر السلطان قلقه من القبائل التي تركت المدينة المحرمة، لتعيش فوق الهضاب، وفي الأودية الواقعة تحت سلاسل الجبال.

ساءه ما رفعه إليه الأرصاد من قيام اتصالات بين رؤساء القبائل، يعلنون الولاء، ويضمرون الخروج على الطاعة. أدرك أنها تكن له الكره والحقد، وتسعى للتخلص منه، وتضمر انتهاز الفرصة للخروج عليه.

وضع أبناء قبيلته من الشبان والفتيات تحت السلاح. علا النفير في مواضع من المدينة المحرمة، فأسرعوا إلى التجمع.

وشت مراسيم السلطان، وأفعال جنوده، أنه يريد أن يجعل حياة القبائل مستحيلة. سلب جنوده الأرض والنخيل وأشجار الزيتون والماشية والمراعى والنهر والروافد. اقتصر سكنى أبناء القبيلة على

الخيام. حرمهم من الزراعة. من يصر على مزاولتها، تقوض الجرافات ما زرعه. حظر عليهم حمل السلاح بكل أنواعه. منع الانتقال من مضارب قبيلة إلى مضارب أخرى، إذا أردوا الانتقال من موضع إلى موضع آخر، فإن عليهم أن يحصلوا على تصاريح مكتوبة، عليها خاتم السلطان.

أرهق الناس بالمغارم والضرائب والمكوس.

أمر بتخصيص سجلات بأبناء القبائل، ومهنهم، والأماكن التي يقيمون فيها، سواء كانت بيوتاً، أم خياماً، أم لاذوا بالخلاء.

أهمل ما كان وقعه مع رؤساء القبائل من معاهدات ومواثيق. وجد في الخروج عليها مصلحة له، ولناسه.

أخذ عليهم أنهم رفعوا راية التمرد، وشقوا عصا الطاعة. أمر بأن يجبروا على الخضوع والخنوع والطاعة. أحكم جنوده حصار مضارب الخيام، وإقامة الكردونات والمتاريس. دقت الطبول. رفرفت الأعلام. شرعت السيوف والرماح والبنادق والمدافع الرشاشة.

قال: أنا ليل لن تستطيعوا الفرار منى، شمس تنفذ إلى الأماكن المغلقة، ريح تكتسح من يحاول الوقوف أمامها.

كأن الجنود لم يروا الأعلام البيضاء في أيدي أبناء القبيلة. واصلوا تقدمهم حتى صاروا على بعد أمتار من الناس الواقفين، والأعلام البيضاء ترتفع في أيديهم. صوبوا سيوفهم وبنادقهم، وجرى القتل كأعنف ما يكون. قتلوا كل الواقفين. لم يبق منهم أحد.

توالت حكايات العنف والدم والرعب والموت. تطايرت القذائف النارية وطلقات الرصاص والسهام. دارت المعارك من بيت إلى بيت. أعمل الجند سيوفهم في الرقاب. قطّعت الأوصال. اخترق الرصاص الرؤوس والصدور. لم يفرقوا بين الإنسان والماشية، ولا بين الأطفال والنساء والرجال. تعالت أصوات القنابل. اهتزت الأرض تحت الأقدام. استخدمت قوات السلطان ما لا قبل لأبناء القبيلة على رده. تناثرت في السماء آلاف التكوينات والألوان البراقة. ارتفعت النيران في السهول والأودية وعلى التلال. أحرقت القرية، ناسها ومزروعاتها وأشجارها وبيوتها. دمرت البيوت والمحال والبيارات، وهدمت المساجد، وقطعت أسلاك التلغراف والتليفون، واغتصبت النساء، وبعثرت قطعان الماشية. أغرقت الدماء القرى المحيطة بالمدينة المحرمة..

بدا أن الشيطان نفسه قد استبطن السلطان. أباح كل ما ينبض بالحياة للموت.

تلبسه جنون التعذيب والتدمير والنهب والسلب والقتل. توالت أوامره بإعمال القتل في القبيلة. ارتفع الصياح، وصهيل الجياد، وقعقعة السلاح، ووقع الأقدام. تلاحقت – بلا انتهاء – عمليات التمييز، والترغيب، والترهيب، والمصادرة، والمداهمة، والإخلاء التعسفي، والهدم، واقتحام الخيام والبيوت. نهب الجند الأموال، سبوا النساء، أسرفوا في تقتيل الرجال والأطفال، بالسيف، أو بالخنجر، أو بسنان الرمح. ثم أضرموا النيران في الخيام. دمروا الحقول والمراعى والغابات والبيوت والمدن. لم يتركوا مكاناً قائماً سوى المساجد التي يعجز الناس عن الاقتراب منها. حتى الحيوانات، هجرت الغابة والخلاء، ولاذت بالكهوف والأماكن الخفية.

وزع جنوده على الميادين، ونواصي الشوارع، والأسطح، ومداخل البيوت والمقاهي، وبين رمال الشاطئ وصخوره. حظر اجتماع أكثر من اثنين في مكان واحد. إن زاد العدد، اقتيد الجميع إلى السجن للمساءلة والحساب. وعد بعقاب صارم لكل الخارجين على القانون، والمثيرين للفتن.

تعددت اقتحامات الجند، ينطلقون من بيت إلى بيت. يفتشون عن الأسلحة والمنشورات وقوائم المقاتلين، في القاعات والسراديب والممرات والحجرات، وفي الزوايا والأركان.

اعتـاد النـاس – وهـم داخـل الخيـام والمضـارب والبيـوت – وقـع سنابك خيل جند الحاكم. يدركون أن الجند يبحثون عن رجال يساقون إلـى بقعـة الدم، أو إلـى المعتقلات. لـم يعد أحد يجرؤ علـى قـول مـا يدينه. خضعوا له خضوع الخوف والذل، لا خضوع الطمأنينة. يعانون الغربـة بـين جنـد الحـاكم. هـذه ليسـت مـدينتهم. القتـل والمصــادرة والتعليمـات والأوامـر والنـواهي، تنقـل الحيـاة التـي ألفوهـا إلـى حيـاة أخرى، يضيقون بها..

سـلبت الحمـلات العسـكرية المتعاقبـة أمـن النـاس وطمـأنينتهم. تحولت إلى ما يشبه الليل الدائم. لا بصيص ضوء، والعتمة مستمرة، والضربات غير متوقعة. لا يدري النـاس من أين، ولا مدى تأثيرها. عانوا الأمراض والمجاعة والجفاف والقحط.

أتلف الجند المحاصيل، وقتلوا الماشية، أو عـادوا بهـا، وحطمـوا العربات. أدانت المحاكم الكثيرين بتهم شتى، فعلقوا في المشانق، أو أودعوا السجون. ثمة من اخترق الرصاص ظهورهم، ومن رموا في البحر مثقلين بقطع من الحجارة.

وضع السلطان الكثير من رؤساء القبائل، والأفراد العاديين، في السـجون. أمـر بمـنعهم مـن الكـلام، أو مـن الطعـام، لأيـام يحـددها. الزنــازين منفـردة، مغلقـة، إلا مـن كـوة صـغيرة للهـواء، لا يتنـاولون طعاماً، ولا يكلمون أحداً.

سكت عن تمثيل جنوده بجثث القتلى. تعددت مرات إلقاء قائد الجند الصرة على الأرض، بما يصعب حصره. يفتحها. تتدحرج الرؤوس المفصولة عن أجسادها أمام السلطان.

كان الجنود يتفننون في تعذيب المعتقلين من أبناء القبائل وإعدامهم. يلقون بأجسادهم – أو ببقاياها – من أعلى القلاع. تبتلعها مياه البحر، أو تجرفها الأمواج.

عرف عن السلطان أنه يستخدم السحر لإلحاق الأذى بمناوئيه، ويلجأ إلى العرافين والمنجمين، وإن واجه الكثيرين بتهمة ممارسة السحر. يجب أن يلقوا المصير نفسه الذي يلقاه السحرة: القتل، أو الحرق، أو الإغراق في النهر. يسبق عمليات الإعدام تعذيب، قد يموت المرء وهو يجرى. يستنطقهم الجنود بما لم يفعلوا، ولا دار لهم ببال.

جدع الجند الأنوف، صلموا الآذان، سملوا العيون، شوهوا الملامح، ركبوا الحدوات في الأقدام كالخيل. انشغلوا بمصادرة الأراضي، وقتل الماشية، وتدمير البيوت، وحرق المزروعات. أسرفوا في سحب الهويات، ومنع إصدارها، والإبعاد، والتهجير، وضرب الرقاب، وسبى الأموال، وهتك أعراض النساء.

كان السلطان يشرف بنفسه على قطع الرؤوس في بقعة الدم. أمر بعرض الأجساد المقيدة فوق الجبل، تلتهمها الطيور الكاسرة، تؤذيها بمخالبها ومناقيرها وهي تأتى عليها. عُلِّقت الأقفاص الحديدية بين الأعمدة، على امتداد الطريق الرئيسة. يوضع في داخلها من يحكم عليه بالموت. لا يشنق، ولا يوسّط، ولا يفصل رأسه عن جسده. يظل في موضعه داخل القفص المعلق، تتناوب نهشه – وهو حي، أو بعد أن يموت – الطيور آكلة اللحم، لا تبقى منه إلا كومة عظام.

جعل الوادي – أسفل القصر – موضعاً، يلقى فيه ببقايا الجثث التي هشمها التعذيب. الجماجم، الرؤوس المهشمة، البطون المبقورة، الأذرع المبتورة، الأجساد المحترقة، الأعين التي ظلت – بالموت – على تحديقها.

نهي الجند عن إخفائها في الرمال. تجد النسور والغربان فيها ما يسد حاجتها من الطعام، دون أن تنشغل بالتحليق والبحث..

لم يكن يبدأ معركة جديدة إلا بعد أن يطمئن إلى ضعف القبائل التي يغزوها. ربما خاض المعارك مع أقرب حلفائه. يأمر جنوده. ينطلقون إلى القتال، يستولون على المضارب والغابات والخلاء. لا يضع حدوداً لمضارب قبيلته.

آخر الحدود حيث يقف جنوده.

قال:

- الانتصار في الحرب يهبنا حق الحصول على الأراضي التي نستولي عليها!

حرص على تقطيع المنطقة الواحدة بين القبيلة الواحدة. تحولت المناطق - التي كانت متصلة - إلى متاهات من الجزر المنفصلة بالأسلاك والجدران والخنادق.

***

أخفقت القبيلة في التصدي للهجوم، فأعلنت استسلامها. أدرك السيد هادى الصباغ أنه بلا حيلة أمام قوة السلطان، وبطش جنوده، طلب الأمان باسم القبيلة. منحه له السلطان. أمر السيد من تبقى من الرجال والنساء، أن يحملوا ما باستطاعتهم، ويرحلوا إلى مضارب أخرى، لفروع من القبيلة، وأماكن قد لا تصل إليها يد السلطان.

هدم أعوان السلطان البيوت. سويت بالأرض. لم يعد إلا كومات من التراب وقطع الحجارة وبقايا الأثاث، أو لم يبق أثر لشيء..

بكي الجميع موطن الأجداد والذكريات والرعي والكلأ، لكن السيد هادى أصر على قراره، وهو يدارى دمعة في عينيه.

دفنت القبيلة موتاها، طوت خيامها، لملمت بقايا ما كان لديها من أمتعة ونفائس. أنفق الناس ما كان بحوزتهم من مال، وتركوا ما كانوا يحملونه من ثياب وحاجيات شخصية. وسرجوا الخيل، ومضوا ناحية الأفق.

ضربوا الخيام في خلاء بعيد، وأوقدوا النيران.

لم يبق من آثار مضارب القبيلة سوى الرماد، وبقايا الأشياء. غيب الأفق أعداداً هائلة من أبناء القبيلة، من نجوا بحياتهم رحلوا إلى المنافي القريبة، والبعيدة، قبائل مجاورة يعرفونها، وقبائل لا يعرفونها، يطأون مضاربها وخلاءها للمرة الأولى.

رحل الكثيرون إلى حيث لا يدري أحد..

الفصل السادس

لم يفهم معنى ما يحدث..

ضاق الميدان الفسيح بحشود من قبيلة السلطان. فرغوا لإحياء طقوس عباداتهم. أوقدوا كومة هائلة من النيران، أطعموها الحطب. أحاطت بها دوائر الراقصين، رقصة غريبة لم يشاهدها من قبل، اختلط فيها نفير بروجي وضعه شيخ بين شفتيه، يطلق منه صوتاً كالخوار. إلى جانب قرع الطبول والصنوج والغناء والهتافات والأناشيد والصراخ والصياح وصيحات القتال وما يشبه الأهازيج. ثمة أعداد منهم كانت تقدم على غريب الأطوار والأحوال في أداء الرقصات. ربما أكلوا قطع النيران، أو داسوها بأقدامهم. دائرة أصغر في قلب دائرة أكبر، في قلب دائرة أكبر. هكذا، أشبه بكعكة من البشر. يرتدون ملابس احتفالية، يغلب عليها اختلاط السواد والبياض.

لاحظ أنهم يحيطون طقوس معتقداتهم بما يصعب فهمه أو تفسيره. يلقون رءوسهم إلى الأمام، يديرونها إلى اليمين وإلى اليسار، يطوحونها إلى الخلف، يهزون الأبدان هزات سريعة متوالية، لا تهدأ، تتوافق مع قراءات عالية، في كتب لا يعرف ماذا تحويه، بلغة صعب عليه فهمها، وما يشبه الأغنيات، أو التراتيل، أو الترانيم، باللغة

نفسـها، نقـروا علـى الـدفوف ذات الأجـراس، حرقـوا البخـور، أظهـروا التقدمات والنذور، كأنهم يقدمون القرابين لآلهة لا يرونها..

توالت الدقات عالية، حركت الراقصين. يدورون برقصاتهم حول الميدان المحاط بالأشجار الكثيفة، والتلال، سيطرت على الجميع حالة من النشوة والوجد، انعكست في الأعين المغمضة، وهزات الرؤوس إلى الأمام والخلف، وتأود الأجساد، والأصوات المؤتلفة، الرتيبة.

يزيد الإيقاع في كل رقصة، عن الرقصات التي سبقتها، يعلو دق الطبول والدفوف والصنوج والآلات النحاسية، وتعلو الأصوات بالغناء، وتزيد الأقدام من ارتطامها بالأرض.

***

ظل وجه الفتاة يطالعه. يتنقل بين موضع وآخر، ينام ويصحو، يستقبل الليل والنهار، فلا تفارقه ملامحها..

عاد إلى الغابة. كثر تردده عليها. يشغله لقاء الفتاة. البحث عنها هو الدافع الذي أملى عليه المخاطرة بالعودة. أهمل ملاحقة الجنود، والمصير الذي يتهدده، وأهمل التصور أنه لن يلتقي بها ثانية، لن يراها ثانية. ظل صوتها يتردد في داخله. هتف به

– من أعماق نفسه – هاتف خفي بأن يتردد على الغابة، يجوسها، يفتش بين أعشابها وشجيراتها وأغصانها المتشابكة..

سأل عنها البراري والجبال والجداول والأشجار والطير والرمال والزواحف والفراشات الملونة..

لم يعد – بعد أن طال بحثه – يمنى نفسه بقدومها إلى الغابة، وبرؤيته لها. هي أشبه بالحلم الجميل، يغيب في الصحو..

تلاشت أصداء الحياة في الغابة، وتكثفت الظلمة في العالم المجهول.

أدرك أن الأخطار ترصده في ظلمة الغابة: العناكب السامة والخفافيش والجرذان والعقارب والأفاعي السامة والثعابين والسلاحف العملاقة والتماسيح، والحيوانات التي لم يرها في حياته، والأعين الواشية، وملاحقات الجنود.

أغمض عينيه، ونفض رأسه للسؤال – بينه وبين نفسه –: هل يستحق بلوغ المدينة المحرمة ما يعانيه؟

الفصل السابع

عرف كيف يدخل المدينة المحرمة، ويخرج منها..

اختار طريقاً صخرياً ضيقاً، ملتوياً، بين جبلين. تنبه – بطول الملاحظة – أنه غير مطروق، ولا يخترقه البشر.

كان يتجه إلى أمكنة رآها بالتصور، وليس بالعين. عنى أبوه – منذ طفولته – أن يرسم صورة الحياة في المدينة المحرمة. أضاف إليها تعدد الروايات، وحذف منها، وعمقها، ووشاها بالألوان والظلال. لم تستقر الصورة في ذهنه على نحو محدد.

ألف – بتوالي التردد على المدينة – شوارعها وأسواقها وحدائقها وبناياتها وحصونها وأبراجها، ترافقه الأطياف في تدرج الهضاب الصخرية، وأسراب الحمام المحلقة، والشرفات، والنوافذ، وفوق الأسطح، وعلى أطباق الفضائيات وأسلاك الكهرباء والتليفونات ومناشر الغسيل.

هل ما يراه حقيقة؟ وهل يراه وحده؟

لماذا إذن لا يتطلع الناس إلى الأطياف في تحركاتها التي لا تنتهي؟!

لم يعرف من يستضيفه أو يؤويه. تبين أن كل ما بحوزته من أسماء زوده بها أبوه، أجبر السلطان أصحابها . أو غالبيتهم . على الرحيل إلى مدن مجاورة، وبعيدة. حدس أنه لو تعرف إلى اسم من الأسماء التي ذكرها أبوه، فسينكره صاحب الاسم نفسه، أو يتهرب من لقائه، وربما – خشية الأذى – أبلغ جند السلطان.

ما آلمه أنه لم يكن يستطيع أن يذهب إلى مكان يؤويه. كل الأماكن غامضة ومختفية. يتحرك في ما لا يتبينه جيداً، ويعانى التوقع. اللمحة قد يعقبها السؤال، أو النظرة المتشككة.

حتى الخرائب المهجورة لا يطمئن إلى ما قد يجده بداخلها، ولعل صمت الواجهة فخ يحسن اصطياده. نصيحة أبيه خلت من المعاني المحددة. اتجه إلى المدينة المحرمة ليقاوم تصرفات السلطان، بمفرده، أو مع من قد يلتقي بهم في السير ناحية الهدف. رأي مئات الوجوه في الشوارع والأسواق والميادين، لكنها تساوت في غياب المعنى.

أين الصداقة؟ وأين العداء؟

اختلفت النظرات ما بين السؤال والفضول والتوجس وعدم الالتفات. تساوت في أنها لم تومئ بالطمأنينة، ولا نطقت بالشر.

يلزم الصمت، لا يسأل، ولا يستوضح، ولا يطلب عوناً، أو يبدى ملاحظة. يجيب عن الأسئلة بإيماءات أو إشارات، أو بتعبيرات الأيدي. يخشى افتضاح أمره. أن تفاجئه لغة لا يعرفها، فتبين غربته.

يعود إلى الغابة في الليل، وفي أوقات من النهار. دائم التوقع للخطر. يكثر من التنقل بين الكهوف والمغارات، وأسفل الأشجار، وفوقها، لا يستقر في موضع محدد.

يشعر بالأطياف في كل ما حوله.

تمنى لو أنها تجسدت، فيراها. ظهر لها رءوس وأعين وآذان وأفواه، وتكلمت. يتأمل الملامح والتعبيرات ونطق الكلام.

زاد في ساعات التردد على المدينة المحرمة، لإلقاء الأسئلة، والاكتشاف، وتدبر الخطوات التالية.

واتته جرأة، فسار بالقرب من قصر للسلطان. مضى إلى جوار السور الهائل، نظراته إلى الأمام، فلا يلفت انتباه الحراس المبثوثين في أعلى. عانى مشاعر الخوف والتوقع والمطاردة، حتى عبر – نهاية السور – إلى الناحية المقابلة.

أخذه البحث عما يشغله – في الأيام التالية – إلى الشوارع الخلفية والحارات والأزقة والممرات والأقبية، يمنى النفس أن يظل كل شيء على حاله: البيوت القديمة، النوافذ العالية، الشوارع المبلطة،

اختلاط روائح الزعتر والبهارات وتبغ النراجيل والفلافل، باعة الخضار والفاكهة والخبز والميرمية، والعطارين واللحامين، والأنتيكات والمقتنيات التراثية والصحف، والوجوه التي ربما تجتذبه بالألفة. يتطلع إلى النوافذ في واجهات البيوت، يداخله توقع بأن يطل من إحداها وجه يعرفه، يعيده إلى دنيا يشتاق لرؤيتها.

تصاعد – في داخله – شعور كالأمنية، كالحلم، كالتصور، بأن يلتقي من يعرفه: أنت؟، يزيل عنه مخاوف الوحدة والغربة، يصحبه إلى الصداقة والرفقة والمؤانسة.

حذره العجوز – أول الطريق إلى مدينة البركة – من نظرات الاتهام، تسبق تكرر المطالبة بأن يبرز بطاقة هويته. الشك يبتلع الطمأنينة.

قال الشاب:

– لم أكن أتصور سهولة دخولي إلى المدينة المحرمة.

قال العجوز:

– القضية هي أن تعيش آمناً في المدينة، أن تعود – كما كانت – وطنك!

تحدث عن شعوره بالغربة وسط ما لم يألف رؤيته في المدينة المحرمة: السحن واللغات والملابس واختلاف العادات.

عقد العجوز يديه فوق صدره، وقال في لهجة متحدية:

- هذا هو ما يريدونه، لكن العيش في المدينة المحرمة حقنا الذي يجب أن نفرضه.

الفصل الثامن

ذاع في المدينة المحرمة أن غريباً، مجهولاً، يتسلل إليها..

حدس السلطان أن المجهول هو الشاب الذي يعرف نيته. هو الذي يهيئ الناس – وإن لم يدعهم لذلك صراحة – إلى الخروج على السلطان، والثورة ضده.

حاصره الخوف من الفتن والدسائس والمؤامرات الخفية. تزايدت أعراض خوفه من كل ما حوله. تسلطت على ذهنه فكرة أن الشاب سيصل إليه حيث هو، مهما يكن الموضع الذي يختاره للإقامة.

للشاب عالمه المجهول، وناسه الذين يلبون أوامره.

لم يعد الحراس يكتفون بالسير حول جدران المدينة. تعددت جولاتهم داخل المدينة وخارجها. أقاموا المتاريس في مفارق الطرق، وقفوا فوق الأسطح، وفي الطوابق العليا، أطلوا – بأسلحتهم – من كوات الأسوار العتيقة والأبواب التاريخية والمآذن وأبراج الكنائس والقلاع القديمة..

فتش الجنود بيوت المدينة، وفتشوا المارة في الشوارع. اصطفت طوابير الناس والسيارات أمام الكردونات والمتاريس، لا يأذن الجنود بالعبور إلا لمن يتأكدوا من بطاقة هويته.

كانت جماعات الجند تطوف المدينة ليلاً، تتشمم أنفاس الشاب، أو ما يدل عليه. تدفع كل باب مفتوح أو موارب، تتطلع إلى النوافذ والشرفات والأسطح، تصعد الخرائب والبيوت المهجورة، تمسح أطراف الغابة.

مشطوا الصحراء للبحث عن الشاب. فتشوا في الغابات والأحراش والكهوف والمغارات والهضاب وآفاق الرمال. حتى الأكواخ المتناثرة في المناطق البعيدة، أطالوا تفتيشها، والتيقن ما إذا كان الشاب قد لاذ بها قبل أن تدفعه المطاردة للاختفاء.

زاد السلطان من أفعال العنف والاستبداد والقسوة والتشدد.

صارت الأرواح في قبضته، أراق الدماء، طارد حتى الأشباح التي رأي أنها تسعى لأذيته. صار مثل طائر الحكايات القديمة – يبسط ظله على البشر والكائنات، فيغطيها بالسواد. يؤثر في الصحو والنوم والتصرفات والكلمات، فلا تعلو على الهمس.

حظر على أهل المدينة – مهما تسمو مكانتهم – أن يتحدثوا في الأسواق، في أمور الدولة، وأخبار السلطان ومعاونيه.

هدد من يخالف أمر الحظر بأن يواجه العقوبات، تصل قسوتها حد فصل الرأس عن الجسد. أمر بالشدة في التعامل مع كل من يسعى إلى تعكير الصفو، وتهديد الأمان. أذن بقتل الشبهة والظنة دون تثبت مما تخفيه الضمائر. حول الكثير من دور الضيافة إلى سجون، يودع فيها المخالفون والمعاقبون ومعتادو الجريمة.

أوقف الجند أعلى السور المحيط بالمدينة، وعلى أبوابها، وعند مفارق الطرق والنواصي، وفوق أسطح البيوت، يحملون السيوف والبنادق والرشاشات. لزيادة الأمن، قسم المدن إلى دروب وسكك، تفصل بينها أسوار. يسير الجند بامتداد كل سور لا يأذنون بالدخول ولا الخروج، إلا من تثبت شخصيته. وزع في الأبراج حاملي أبواق، تعلو بالتحذير عند اقتراب الخطر. بني مستوطنات خلف التلال والجبال، لا تراها الأعين. أحاط ذلك كله بسور عال من كل الجهات، لا سبيل إلى النفاذ منه..

أطل الحراس من مزاغل الأبراج وفتحات الأسوار..

تناثر فوق الأسوار – إلى جانب الحراس – نافخو الأبواق وضاربو الطبول، يعلنون عن الضيف ذي المكانة. يتابعون استقباله من قبل أن يترك منفذ الأسوار خلفه، حتى ينفتح له الباب الخارجي لقصر السلطان.

أغلقت المساجد في وجوه المصلين، واتخذت شرفات المآذن العليا مراصد يطلق منها الجنود رصاصاتهم على الأهداف الساكنة، أو المتحركة.

قصر صلاة الجمعة على المسجد الجامع في المدينة وحدها، وأفتى بعدم جوازها في المساجد والزوايا بالقرى. كان الجنود يمنعون الناس – أحياناً، ولأسباب غير معلنة – من الصلاة في المسجد الجامع، فيصلّون في الميدان المحيط، وفي الشوارع المتفرعة والحارات والأزقة وباحات البيوت.

أصدر سجلات بألاّ يرتفع بناء على البنايات المجاورة، وألا تطل نافذة على موضع، حتى لو كان مهجوراً، أو خالياً، وألا يشرف بناء على ساحة، أو ميدان، أو شارع، يسير فيه موكب السلطان. تحدثت السجلات عن حقوق الجار، والجدران المشتركة، وحق السابلة في المرور بأمان، وضرورة هدم كل ما يسهل استخدامه في إلحاق الأذى بالبلاد والعباد.

ما ظهر من الأمر، حرص السلطان على حرمة الناس وأسرارهم، وما خفي هو عدم تمكين المتآمرين – لابد أن الشاب أفلح في اجتذاب آخرين – لقذف طوب، أو ماء مغلي، أو كتلة لهب، على موكب السلطان، أو رميه بسهم يصعب الإفلات منه.

حرص على أن يشيد المهندسون قصوره في الأماكن المرتفعة، وأعلى الجبال، تطل على السواحل والتلال والخلاء الممتد. وعلى ما يحيط بها من ميادين وشوارع وأسواق ومساجد. أحاطها بسواتر عالية من الطوب والأسلاك الشائكة والمكهربة.

لا يؤذن لعين فضولية أو متآمرة أن تتعرف إلى ما بداخلها، ولا يؤذن للناس في أسفل أن يحاولوا الصعود إليها..

أكبر قصوره، وأشدها قرباً لنفسه، فوق هضبة متوعرة فى الجبل. جعله طلقاً من جميع الجهات، ولا يتصل به أي بناء. يطل على المدينة في أسفل، بيوتها وحدائقها وشوارعها وأسواقها، كالقلعة، أو كالحصن، لا يمكن الدخول إليه، أو الخروج منه. له أسوار عالية، وثمانية أبراج. صنعت في أسواره وأبراجه فتحات لأسلحة الرمي، واحتوى على ما يصعب حصره من المزاغل والشرفات والسلالم الدائرية والأقبية التحتية. لا يصعد إليها سوى الخواص من أعوانه. يمشون على جسر رفيع كالصراط، يخضعون فيه للتفتيش بالأجهزة التي تبين حتى عما تحت الجلد. تشارك في المراقبة والحراسة كلاب مدربة، لها أفواه لعابها دم، وأنياب كالسكاكين الحادة، وأعين تصدر شواظ النار، وتقطع مسافة الجري من أول الأسوار إلى آخرها في دقيقة، أو أقل.

هو في مأمن من كل ما قد يعده له الشاب، أو يدله على فعله أصدقاء الصحراء والخلوات والأماكن القصية. يعرف من يحيطون به بالاسم والسحنة، والنعم التي تجعل الولاء رداً للجميل. يطمئن بنفسه إلى إغلاق مزاليج الأبواب، وإلى وقوف الحراس مزودين بالسيوف والخناجر، في مواقعهم حول القصر وداخله. يغيب عن تصوره التوقع، فيسد الطرق بما يرد أقسى الاحتمالات، وأغرب الوسائل. السماء – وحدها – وسيلة دخوله القصر, يهبط مثل الطير، أو بما لا يتصوره.

الفصل التاسع

طـال حصـار جنـد السـلطان لمضـارب القبيلـة، حتـى نفـدت الأقـوات، ونضـب المـاء، وعـانى النـاس هـم اللحظـات التاليـة. أجهدهم الحصار. حكاية الشاب مثل اللغز الذي يصعب حله.

أدرك السـيد هـادى الصـباغ أنـه لا يملـك هزيمـة السـلطان، ولا يستطيع محاربة قواته.

عقد السلطان والسيد الصباغ صلحاً مشروطاً بأن تبحث قبيلة الصباغ عن الشـاب، تلقى القبض عليـه، أو تقتلـه، أو تشـى بمكـان اختبائه.

عنى السلطان باستمالة القبيلة ومصافاتها. عوضها عن كل ما لحق بمضاربها من تدمير. أمر بتكريم السيد هادى، وتوقيره، وأجزل صلاته. خلع على شيوخ القبيلة فاخر الخلع، أهداهم الجياد المسومة. قيض لكل منهم صرة ممتلئة بالمال. اعترف لهم بحقوق العبادة والتجارة، وممارسة ما ألفوه من طقوس وتقاليد. وعد بألا يفرض عليهم ما يخالف ما ورثوه عن آبائهم واستمروا فيه.

طلب السلطان من السيد هادى الصباغ أن يزوجه واحدة من بناتـه. قـال إنـه لا يرمـى من طلب المصاهرة إلا التكريم والتشريف، بصفته أخاً للسيد هادى الصباغ وصديقاً.

اعتذر السيد هادى الصباغ – وهو يقاوم ارتباطه . أنه مهما تبلغ مكانته، ومهما يجيد فرض سيطرته، فإنه لا يملك أن يواجه الناس. لا يملك أن يمنع السدادة من التطاير، وتصاعد الدخان الذي يسبق خروج مارد القمقم. أعرف إنها حكاية، حدوتة، لكن ذلك ما أعنيه. لا أستطيع أن أحكم إرادتي، ولا سيطرتي، على سخط الناس، ولا ثورتهم، ولا ردود أفعالهم.

الفصل العاشر

قال السلطان:

- ما اسمك؟

- فدوى.

- من أي القبائل؟

- قبيلة الصباغ.

- لماذا رفضت طلبنا باستدعائك وقاومت الجند؟

أخفضت عينيها، وظلت صامتة.

فاجأها بالسؤال:

- أين تلتقين بزياد؟

- من زياد؟

تقابلا، وافترقا، دون أن يسألها عن اسمها، أو تعرف اسمه..

رآها الجند والأرصاد في تقاطعات طرق الغابة، تجمع أوراق الشجر، وتلتقط الثمار. تنتظر حتى تنتهي الأغنام من رعيها. تهش عليها بالعصا، تدفعها إلى الطريق المنحدرة نحو طرف الغابة.

شاهدها عين مع الشاب. حدس مدى الصلة بينهما، من لقاءات الغابة، الجلسات المسترخية والهمسات والابتسامات والألعاب.

رفع ما شاهده، وتخميناته، إلى قائد الجند, رفع القائد ما لاحظه العين إلى مقام السلطان.

أمر السلطان جنوده أن يبحثوا عن الفتاة في داخل الغابة وخارجها، في أي مكان يتصورون وجودها فيه..

ظلت فدوى على صمتها، ارتعشت شفتاها كما لو كانت تهم بالكلام، ثم أطرقت إلى الأرض.

قال السلطان:

- أنا أعرف حتى ما تخفيه الصدور..

قالت:

- شاب [وهزت يدها دلالة النفي] لا أعرف اسمه، التقيت به مرتين في الغابة..

- لم يعد في الغابة. لم يعد في مكان بالذات. إنه يدخل المدينة المحرمة ويخرج منها كأنها بيت أهله..

قالت بعفوية:

- هي بيت أهله بالفعل..

– ماذا تقصدين؟

– ولد في مدينة بعيدة.. لكن أباه من أهل المدينة المحرمة..

– أنت هنا لأتكلم وتسمعين.

أردف في لهجة تقريرية:

– أعرف أنكما تتحابان..

– رأيته مرتين في الغابة.

– لنقل إنه يحبك..

وهز إصبعه متوعداً:

– إذا أردت الحياة لقبيلتك بعيداً عن ضغطة يدي، فما عليك إلا أن تيسري لنا الوصول إلى الشاب..

أغضب السلطان أن القبيلة لم تسلم الشاب له، فهي إذن تجاسرت على العصيان. أزمع العودة إلى سياسة التدمير، وأعمال القتل والتنكيل..

قال قائد الجند:

– لا أحد يلتقيه إلا في الموعد الذي يختاره!

قال السلطان:

- ما قيمة الحب إذن؟

تفرس في وجه فدوى، كأنه يكتشف ما يدور في رأسها:

- أثق أن حب الشاب لك سيأتي به إلينا..

وانتزع ابتسامة شاحبة:

- هذا كل ما نريده منك!

استطرد في ابتسامته الشاحبة:

- وتريده حياة قبيلتك أيضاً!

قالت إنها لا تعرف إن كان الشاب يحبها ، ولا تملك قلبها فتعطيه لمن تختاره. أفراد القبيلة يتزوجون من بعضهم البعض. تحيا القبيلة على سنن ورثتها من أجيال سابقة. طرف الخيط غائب. بدايته في المعتقدات والطقوس الموروثة، لكنه متصل، لا يملك أحداً أن يبدل فيه، أو يحوّر، أو يهمل ما ينبغي أداءه..

وخنق التأثر صوتها:

- أنا مثل السمك الذي لا يستطيع الحياة خارج الماء..

صرخ السلطان:

- أنت تلتقين بالشاب!

قالت:

- ظهر لي حيث لا أتوقع..

علا صوته:

- حياته هي المقابل لحياة قبيلتك..

ثم وهو يعدل من وضع عباءته على جسده:

- لا نطلب إلا أن تدلى عليه جنودنا..

- لماذا؟

علت شفتيه بسمة سخرية:

- لكي يلوطون فيه!

وصرخ:

- حياة الشاب تساوى حياة قبيلتك.

الفصل الحادي عشر

زاد ترددها على الغابة، ووقوفها على ساحل البحر، والتمشي في الخلاء، والنزول إلى الأسواق.

قضت الأيام تستعيد كلمات السلطان، وتناقش الاحتمالات. مصير قبيلتها، والقبائل المجاورة، معلق بإرشادها الجند إلى الموضع الذي يختبئ فيه الشاب، تأتى لهم بالأمن والطمأنينة، أو تجلب الدمار.

فاجأها الشاب في لحظة لم تتوقعها. كانت تحمل حزمة كبيرة من الأعشاب البرية، أتت بها من داخل الغابة..

ألف البقاء في الغابة، يتوارى في الكهوف والمغارات وتحت الأشجار. قرب الغابة من المدينة المحرمة يتيح له أن يطوف في أسواق المدينة وشوارعها وحاراتها المتشابكة. يعود إلى الغابة قبل أن تفطن إليه عين راصدة، أو يطالعه سؤال متشكك.

واجهته – عكس ما حدث في المرات السابقة – بنظرة ثابتة:

– لماذا تصر على مطاردتي؟

أربكه قولها.

اعتـاد صـمتها أمـام تـوالى أسـئلته، اختفاءها مـن أمامـه. تـدخل الغابة، تغيب حيث لا يدري..

قال لمجرد أن يتكلم:

- لأنك حريصة على تلك المطاردة!

أعادت السؤال:

- لماذا تطاردني؟

- أثق أنك تعرفين.

- لا أعرف إلا أنك تسلك سلوكاً شريراً..

- هل أصبح الحب شراً؟!

وهي تدفع خصلة شعر متهدلة إلى خلف أذنها:

- أنت تحبني إذن؟

- أكثر من نفسي!

رف على شفتيها ظل ابتسامة:

- هل تقوى على دفع مهري؟

أدرك أنها له، وأنه لها..

– لو أنك أردت حياتي فلن أتأخر في بذلها.

بدت له أجمل من في الدنيا، وإن لم يفطن إلى سر جمالها تماماً. ربما الشعر الحنطي، والعينين السوداوين، الواسعتين، والرموش الطويلة، والأنف الدقيق، والبشرة الصافية، والشفتين الورديتين، وربما الروح الآسرة، والابتسامة التي – إن اتسعت – كشفت عن الغمازتين، فأضافتا إلى ملاحتها..

شعر بأنس إليها. بدا كأنهما قد تعارفا من زمن..

قال:

– اسمي زياد..

ورنا إلى صمتها:

– ما اسمك؟

همست:

– فدوى.

لم تكن سألته عن اسمه، ولا من أين جاء، ولا إلى أين يذهب. اختلفت كلماتها وتصرفاتها عما ألفه من قبل، كأنها راجعت صدودها له، وتأكدت من حبه.

ظلت تؤنسه بقدومها إلى الغابة. تحفظ ما لا ينفد من الأغنيات والأحاجي والألغاز والسير والملاحم والحكايات والمراثي. ترد على القليل من الأسئلة الكثيرة التي يحاصرها بها، الحياة في المدينة المحرمة، وما إذا كان الدخول إليها سيظل صعباً ؟

تكتفي بأخبار ما يحدث في المدينة، حملات التفتيش التي لا تنتهي، الكردونات والمتاريس ونقاط المراقبة وفحص الأوراق، إشفاق أهل القبيلة مما يتهدده على أيدي عساكر السلطان.

ينسى الأمر، أو يتناساه. ينشغل بجمالها حتى عن مصيره والخطر الذي يهدده. أهمل التوجس مما إذا كانت الفتاة قد ظهرت في حياته لتصرفه عن الغاية في نهاية الرحلة، الهدف الذي يسعى إليه. الابتسامة لا تفارق شفتيه، والعينان ضاحكتان، والعبارات مهوّنة. ربما أشار إلى طائر فوق شجرة، يبدى إعجابه بصوته..

شاركها رعى الأغنام والماعز، وحراسة المزروعات، وتقليم النخيل، ونقل الثمار إلى خارج الغابة.

بدت على معرفة بكل شجرة، بكل قطعة حجر، بأنواع الثمار. صادقت الطيور والفراشات والأسماك الصغيرة في الجداول. وكانت الحيوانات تمر بها دون أن تؤذيها.

ساعدته على أن يتوغل بين الأشجار الكثيفة داخل الغابة. تعرف الانحناءات والتقاطعات ومواطن الخطر.

ينسى في وجودها معه، كل ما يثير القلق. لا يتلفت، ولا تجتذبه النظرات، ولا يتوقع ما يخشاه. وجد في نفسه جرأة كي ينظر إلى ما حوله، ويتأمله.

أدرك أنها تضمر له مثل ما يضمر لها. تبين مشاعرها في نظرات عينيها، صمتها أمام كلماته، وارتباكه، وحرصها على لقائه، وتلكؤها في الابتعاد إذا حان الفراق..

وهو يغالب الحرج:

– لماذا رفضت ودي، ولماذا تقبلينه الآن؟

– أبى لم يرفض..

– من أبوك؟

– الشيخ السبحى..

اتسعت البسمة في وجهه:

– يتحدثون عن كراماته..

– هو رجل طيب، يتصرف بأفعال الرجال الطيبين..

– هل أستطيع أن أزوره؟.

– بابه مفتوح لكل من يقصده..

تعددت لقاءاتهما. تدفعه قوة خفية لا يقوى على مساءلتها. يجوسان خلال الغابة، يخترقان الأودية، يصعدان التلال، يشاركها قطع الحطب، وجمع الثمار، وإحضار الماء من النهر، وتأمل نومها المطمئن تحت ظل شجرة. يقاسمها الطعام. يحدثها عن إعداده للرحلة، ونصائح أبيه، والأطياف التي طالعته في الغابة، تحدثه عن الحياة في مضارب القبيلة، قبل أن يدمرها جند السلطان ، وعن تأثيرات الجو على مضارب الخيام: برودة الشتاء، وحر الصيف، ورياح السموم، والرياح المحملة بالأتربة والرمال.

كانت أقدامهما الحافية تدغدغها قطع الحصى المتلاصقة، تتخللها مياه الجداول. يجلسان تحت ظلال الأشجار الطويلة، المترامية على العشب، يختفي ظلهما في مساحة الخضرة الداكنة، يسترجعان القصص والحكايات القديمة، يتبادلان النوادر والنكات، يخاطبان الطير والورد والجداول، يدندن بما يتذكره من الموسيقا والأغنيات، يتقافزان بين الشجيرات والنباتات البرية والأعشاب، يتراشقان بالورود والرياحين والزنابق، يلاعبان القردة، يطاردان الأرانب البرية، يجريان وراء الفراشات الملونة. يجريان، ويجريان، هي تسبقه، وهو يسبقها، حتى يسقطان – ضاحكين – على العشب الأخضر،

ينظران إلى السماء، ويتحدثان، يبنيان بيوت الطين والرمل ويهدمانها، يغتسلان في مياه القنوات والجداول الصغيرة، يصيدان الطيور والأسماك، تصرخ لخدش في يدها من فرع شجرة، تختفي ليبحث عنها، يعيد قراءة ما يحمله من الكتب، أو ما تأتيه به فدوى، تأتى له بأطعمة من البيت، صينية من النحاس، عليها الأرز المفلفل، واللحم المحمر بالبصل، المغموس في زيت الزيتون، المتبل بالبهارات، ورءوس الفجل، والسلطة بالبصل والزيت، والحلوى. يلتذ بأكلها، وإن اعتذرت – في كل مرة – عن رداءتها.

ربما اكتفي بالجلوس إليها صامتاً، يتأمل عينيها السوداوين الواسعتين، وأنفها الدقيق، وبشرتها الوردية الناعمة.

يشعر أن السحر يحيط بهما، أو أنها السحر نفسه.

لاحظ أن الخراف – مهما انطلقت في أحراش الغابة، وابتعدت – فإنها تعود إلى حيث تقف الفتاة، أو تجلس، تكتمل عودتها قبل أن تتجه الشمس إلى الناحية المقابلة.

قالت:

– عندما تترك الغابة.. إلى أين تذهب؟

– المدينة المحرمة..

رفعت حاجبيها في دهشة:

- كيف؟

- أعرف كيف أدخل إليها، لكنني لا أستقر فيها كي لا يراني جند السلطان.

- تدخل وتخرج.. ثم ماذا؟

- قتل السلطان أبى!

أشاحت بيدها:

- وقتل الكثيرين..

وهو يغتصب ابتسامة:

- تسمعين عن الثأر؟

- هو في ظروفنا الحالية انتحار.

- لا أوافقك على التسمية.. لكن إذا اقترن الهدف بالانتحار، فلا بأس!

تملكه شعور بأن فدوى هي أقرب البشر إلى نفسه. شعر أن الدنيا - من حوله - تتفتح، وتزهر، وتنبض بالرؤى الجميلة.

بدت العلاقة بينه وبين الفتاة حلماً، تمنى - من أعماق نفسه - ألا يستيقظ منه. إذا صحا، يبدد الواقع ما رآه في الحلم. يواصل العيش بما تمنى. استولت على نفسه، ملكته تماماً. أذهلته عن كل شيء. تعزى عن مدينته التي لا يتاح له العيش فيها.

أيقن أن الغربة يمكن احتمالها برفقة هذه الفتاة، تؤانسه، تسرى عنه. دفعته ثقته فيها لأن يروى لها ما كان يخفيه. أفضى لها بكل شيء، فكرة الرحلة منذ حدثه أبوه عنها.

قال بلهجة محرضة :

- ليتك تكثرين من الكلام عن المدينة المحرمة.

المدينة المحرمة قدره، يجب أن يستقر فيها، ويعيش.

استطرد فى لهجة معابثة:

- سأرعى خرافي هنا..

أظهرت الدهشة:

- أين هي خرافك؟

- إنها تتقافز في قلبي!

يفترقان عند طرف الغابة، لا يسألها عن المكان الذي تقصده، لكنها تلح في السؤال عن وجهته، وما إذا كان يلزم الحذر، أم يهمل التوقعات القاسية!

يتلفت وراءه يتابع ابتعادها. يلتقط نظراتها بالفعل نفسه، تملأ البسمة وجهها، يلوح بيده – مودعاً – حتى تغيب في انحناءة الطريق.

الفصل الثاني عشر

طال انتظاره لها في الغابة.

لم يعد يراها. اختفت كحلم، عيناه تفتشان عنها بين أشجار الغابة، أذناه ترهفان السمع، ترقباً لوقع أقدامها على الأرض الرملية.

تغيب كل الصور، تذوب، لا تبقى إلا صورة الفتاة، استولت على تفكيره، ظلت تخايله، تظهر أمامه في تنقله بين الأمكنة، ملامحها الباسمة تملأ وجدانه وذهنه.

يغمض عينيه، يستعيد القسمات والملامح والتصرفات العفوية والمقصودة.

لم يعد يتحمل توالى الليل والنهار دون أن يراها، تعود إلى حياته، يسأل وتجيب، تسأل ويجيب، تأخذهما المناقشات إلى آفاق بلا نهاية.

ساوره الشك أن الفتاة ربما كانت طيفاً من تلك التي تحلق في الغابة، هبطت إليه لتؤنسه، ثم عادت إلى حيث كانت، فلا ينتظرها.

ما عانته للحاق به، وما تخشاه من أذى يترصده، عكسته ملامحها الخائفة، وخطواتها المهرولة.

حدث ما حدث في لحظة كالومضة. صرخت بكلمات التحذير، دون أن تشير إلى البواعث والهدف.

كيف عرف السلطان مكانه في الغابة؟

- لماذا أنت هنا؟

- أنتظرك.

وهي تلتقط أنفاسها:

- ابتعد حالاً.

- هذا هو موعدنا..

كررت القول:

- ابتعد حالاً..

- لماذا؟

منعت نفسها من الخروج إلى الغابة. تدرك أن النظرات ستلاحقها. يراها زياد. تهبه إنصاتها كما أمرها السلطان. يراها الجنود. يعتقلونه، أو يصوبون إليه رصاصهم..

فاجأها السيد هادى الصباغ.

- اختفاؤك ليس حلاً..

أردف لنظرتها المندهشة:

– لن يطول وقت عرض السلطان..

التمعت عيناها ببريق. أدرك أنها تغالب البكاء:

– هل تضحين بقبيلتك من أجل شاب لا نعرفه؟.

– كلمتنى عن قرابته لنا..

هل يعاقبه السلطان لأنه يريد العودة إلى المدينة المحرمة؟

حدثها زياد عن تسلله إلى داخل المدينة، يجول في أنحائها ويعود. يحيا في ظل الخوف كي يقضى ساعات قليلة، قاسية، في التعرف إلى القسمات والملامح. اقتصرت كلماته على تمنى البقاء في المدينة، لا يخشى المطاردة.

تمازج في داخلها الخوف على القبيلة، والخوف عليه. تخشى – إذا لم تصل إليه قبضة السلطان – أن يواجه أهلها ما لا قبل لهم به من القتل والتدمير والإحراق. تشحب في ظلاله المعتمة معاناة المرات الفائتة.

أدركت وهي ترمق النظرات المحدقة من الأركان المعتمة أنه أكثر شخص تحبه في هذا العالم.

رفضت مجرد التصور أنه يغيب عن حياتها، وأنها هي التي تسلمه إلى النهاية القاسية. خنقها الشعور بالذنب. إذا قتله جند السلطان، فلأنها وشت به. ما واجهته من تعذيب لا يساوى مواجهته للموت، لا يساوى حياته.

أزمعت ألا تتجه ناحيته، فلا يفطنون إليه. يبتعد عن المكان بالملل، أو اليأس، أو الخوف.

أحاطوا بأطراف الغابة الملاصقة لمضارب القبيلة. لن يرفعوا الحصار، وسيواصلون البحث، حتى موضعه. تخلت عما كانت اعتزمته، واندفعت إلى حيث ينتظرها.

عرفت أنها لابد أن تفعل شيئاً، حتى لا يصل إليه الجنود، أو رصاصهم..

- إذا بقيت في الغابة، أو تسللت إلى المدينة المحرمة، فلن تأمن على حياتك..

أهمل تلفت نظراتها:

- لماذا؟

قالت:

- يبحثون عنك..

- من هم؟

- أعوان السلطان..

جاهدت ليبدو صوتها هادئاً:

- لعلهم أعوان الصباغ ..

وهو يغالب تأثره:

- الصباغ ؟!

- وعد السلطان بالقضاء عليك!

وشعرت بالاختناق يتملك صوتها:

- لا تعد إلى الغابة حتى لا تواجه الـ......

لم تكمل قولها. أطلقت آهة من طعنة خنجر، غابت اليد التي قذفت بها.

الفصل الثالث عشر

في اللحظة التالية لسقوطها – ميتة – على العشب، أدرك الخطر المحدق في الأعين والصيحات والقذائف المنهمرة.

لم يكن قد تأكد من مطارديه، إن كانوا جميعاً من الجنود، أم رافقهم من اطمأن إلى صداقتهم، فوشوا به.

جرى بآخر قوته. تقافز فوق الأعشاب والشجيرات المتكاثفة. لم يضع في باله مقصداً محدداً، مجرد أن يبتعد عن الغابة. بلغ الطريق المسفلت. عرف أنه في مدينة البركة.

هنا يستطيع الاختفاء.

اختبأ في بيت مهجور، أول الطريق إلى المدينة. ثم مضى – في خطوات متلفتة – إلى قصر السيد الصباغ، يلفه الندم من أن حرص فدوى على إنقاذ حياته، كان السبب في موتها.

لو أنها ابتعدت عن طريقه، فرت بنفسها، ولم تصرخ بتحذيره، ما اتجهت إليها الضربة المميتة.

الرواق الطويل تظلله الأشجار على الجانبين. وتتناثر في الحدائق الواسعة مساحات الورود الحمراء والبيضاء والصفراء والزهور

والرياحين وشقائق النعمان والبنفسج والعنبر والأرجوان والزنبق والنرجس.

أدرك أنه غرق في الثروة والعز والأبهة. الأرض مغطاة بالطنافس، مرصوفة بالرخام المضلع والأحجار الكريمة. القاعة الفسيحة مضاءة بنوافذ من الزجاج الملون. الأعمدة من الجرانيت والرخام. الجدران مزينة بالزهور والمشغولات الذهبية. النجف مدلى من الأسقف، والأبليكات مثبتة على الجدران، والستائر، والأعمدة، والأقواس، والموزاييك من الزجاج والرخام الملون، والنقوش والزخارف النباتية والمنمنمات، والرياش والطنافس، والسجاجيد، والأواني المزينة بنقوش الذهب والفضة ، والشمعدانات، والمباخر، والتحف التي لا تقدر بثمن.

عرف – من حكايات فدوى – أنه كدس الثروات والجواهر والذهب والفضة في حجرات مغلقة، يحتفظ هو وحده بمفاتيحها. حجب عن مجلسه خواص الناس والعلماء وأهل الدين والفقهاء والقضاة وذوى المروءات وأرباب الشرف. فرق الأموال والأقمشة على الأمراء والخواص من الأكابر والوزراء والرؤساء والقواد والكتاب والأجناد. أكثر من الإنعام على أعوانه وجنوده وخدمه، ألبسهم الخلع، فرق الدنانير والدراهم الكثيرة. تزلف إلى العلماء والفقهاء وأقطاب الصوفية. أظهر لهم المحبة والتجلة والاحترام. أجزل النعم والعطايا

لمن أنشدوا القصائد بين يديه. أباح لجنده الدخول إلى القصر، والتنزه في رياضه، والتفيؤ في ظلاله، وقضاء الأوقات في المتعة والإيناس. حرّم ذلك على الناس العاديين، فلا يؤذن لهم بالدخول.

التقطت فدوى نثار الهمسات في الأسواق : السيد الصباغ يستأثر . دون ناسه . بخيرات القبيلة، يبعثرها، ينفقها على مباذله وشهواته. يهيم بالجواري الحسان، يلبى كل ما يريده العلماء والوجهاء والأعيان، حتى يظل في موضع الحكم. يعطى أذنه لأصحاب السعايات والوشايات. يصطنع المحيطون بالسيد الصباغ سلوكهم، لا يأتونه إلا بالأنباء السارة، يهملون ما عداها، يحرضونه على الكلف باللذات. يجتنبون إسداء النصائح. خصص أوقاتاً من الليل والنهار للجلوس مع رجاله المقربين ، الخواص والبطانة والخدم، يروح عن نفسه من أعباء الدولة ومتاعب الحكم. من حق الحاكم على نفسه، وعلى الناس، أن يريح ذهنه وجسده من أعباء الدولة، ومستلزمات الجد.

رفعه الأعوان فوق جنس البشر. اقتربوا به من موضع المقام الإلهي. هو الحاكم، والحاكم ظل الله على الأرض، الموكل بإقامة أوامره ونواهيه.

جلس زياد إلى وزير القصر.

شرح لـه الـوزير مـا يجـب عليـه فعلـه، منـذ استئذانه فـي الـدخول علـى مجلـس السـيد هـادى الصـباغ: كيـف يسير، ومـاذا يقـول، ومتـى يتكلم، ومتـى ينصت، ومدى التأدب في تصرفاته وكلماته.

أنصـت إلـى توجيهات الـوزير بمـا ينبغـي فعلـه. يدخل القاعـة إن وافق السيد الصباغ علـى مثولـه بـين يديـه، يلقـى السـلام، ويظـل فـي وقفته البعيدة، ينتظر الإشارة، ما إذا كان يأذن له السيد الصباغ بشرح الحـال دون أن يتـرك موضـعه، أو يقتـرب مـن مجلـس السـيد، فـي خطـوات متمهلـة، وقامـة أقـرب إلـى الانحنـاء، حتـى يشـير لـه السـيد بالموضع الذي يختاره له بين حضور مجلسه. إن استقر لزم الصمت، لا يتكلم إلا إذا بادره السيد الصباغ بالسؤال، يحرص فلا تصدر عنه عطسة، أو سعلة، أو تصرف لا يليق.

***

طال انتظاره أمام الباب المغلق، المنقوش بالذهب، قبل أن يؤذن له بالدخول..

سبقه كبير الحجاب. مسح جندي علـى صـدره وسـاقيه، يطمئن على عدم وجود ما يقلق..

كان السيد هادى الصباغ جالساً في صدر القاعة الفسيحة، من حولـه رجـال الـبلاط والـوزراء ورؤسـاء القبـائل والوجهـاء وعلمـاء الـدين.

تدفقت الأضواء المباشرة من السقف، ومن داخل الزوايا والمقرنصات، ومن انعكاسات المرايا على الجدران.

واجهه بنظرة متسائلة: القامة الهائلة، الوجه المجدور، العينان الصغيرتان كأنهما اندفستا في لحم الوجه، الأنف الكبير، الشفتان الغليظتان، اللغد الممتلئ، يحيط رأسه بشال من الكشمير المختلط الألوان، ويضع على كتفيه عباءة من الجوخ البني، ويدس قدميه في خف محلى بالذهب.

لم يخف السيد هادى ضيقه من تدخل جماعات لا يقدر ناسها المسئولية. لا ينكر عونهم في استرداد مضارب القبيلة. لكنهم أشاعوا بين الناس روح الحسد والمطامع الشخصية، والنظر إلى ما في أيدي الآخرين.

غالب السيد تأثره وهو يصارحه بأنه يصعب أن يعلو صوته – أو يهمس – بالرفض، فهو لا يملك القوة التي تعينه على الرفض..

تحدث السيد عن النجدة التي طال انتظارها من المدن القريبة. لم يعد أمام أهل القبيلة إلا الاعتماد على النفس، وعلى النظر إلى الأمور من زاوية ما يمكن تحقيقه. تحدث عما تدعو إليه الشريعة من الجهاد لنصرة الإسلام، وحماية البيضة، والذب عن الحوزة، وإقامة

الحدود، وتحصين الثغور، وإقامة العدل، وتقدير العطاء، ومراعاة حرمة المسلم، وعدم أخذ الأموال إلا بحقها.

قال السيد الصباغ إن العراك – بلا تهيؤ – قتل للنفس، وليس دفاعاً عنها. قد تكون الهزيمة ضرورة. ثم يتغير الحال..

عانى زياد حزناً لأن السيد الصباغ يصدر – في تصرفاته مع السلطان – عن نفس تضمر الشعور بالذلة، كأنه يملك أمر حياته وموته. روى عن هداياه إلى السلطان – بين كل فترة وأخرى – أعداد من الجياد والإبل والخراف والماعز. يقف بها أعوان السيد هادى على أبواب المدينة المحرمة. يسلمونها لجند السلطان، ويعودون.

بدا محجوراً عليه. بلا حول ولا قوة. يضمن زعامته للقبيلة بالسكوت عن تصرفات السلطان. ليس له إلا الاسم والسكة والعلامة على الأوراق. النصائح تأتى عبر الرسل، والأوامر تأتى في صورة توجيهات.

استعاد السيد الهادى زعم أبناء القبيلة بأنه يبتعد بأحكامه عن شريعة القرآن، ويترك العنان لأهوائه، تسيّره على النحو الذي يرضيه، ولا يرضى الله. وأنهم – عندما يصلون خلفه – لا ينوون صلاة الجماعة، وإنما ينوون صلاة المنفرد..

قال السيد هادى:

- مادام الحاكم لا يحارب الإسلام، فتصرفاته الشخصية تعود إليه، ويجب مناصرته، وعدم الخروج عليه!

- نحن نحيا في ظل الموت.

استنكر زياد ما قاله ، فى اللحظة التالية .

شوح السيد الصباغ بيده :

- ليس في الموت ما نخشاه. ولعله يكون الباب الذهبي إلى السعادة الأبدية.

تحدث السيد هادى عن التسامي، وعن التغلب على مغريات العصر، والنظر إلى ما بأيدي الآخرين.

هو لا يمارس السلطة باعتباره حاكماً يقضى فلا راد لمشيئته، لكنه رب الأسرة الذي يرعى شئونها. يقضى بين الناس بحكم الله. ينظر في الشكايات، وقضاء الحاجات، ويفصل بين المتخاصمين، ويرد المظالم، وينتصر للضعفاء والمساكين.

قال زياد في نبرة منفعلة:

- وثأر الفتاة؟

أذهله ما رواه مصطفي الشوبكي التاجر في السوق القديم..

نصحته بالفرار، وكانت هي التي أبلغتهم بمكانه. الفتاة التي لم يحب غيرها، ماتت. قتلها جند السلطان. حاولت أن تنقذه من رصاصاتهم، فقتلتها الرصاصات نفسها..

شعر أنه مازال يحبها، رغم ما انكشف له. هي لم تحاول الإيقاع به إلا لتنقذ أهلها. هي تحبه، لكنها تحب ناسها كذلك. لم تستغرق المفاضلة طويلاً. الخيار الصعب يفرض أن تختار القبيلة، أن تبقى على حياة الجماعة.

فاجأه قول السيد هادى:

– نالت ما تستحقه!

– دفعت حياتها لإنقاذي.

– هي التي وشت بك في البداية..

هز رأسه بالنفي:

– كانت تحبني!

– لكنها هي التي وشت بك!

– ربما واجهت ما لم تقدر على احتماله!

– أرفض تبرير الخيانة !

- لو أنى كنت في موضعها ربما أقدمت على ما فعلته!

ارتجفت عضلة فكه:

- لا شيء يبرر الخيانة!

- هي التي دعتني إلى الفرار..

- كنت هدف الرصاصة التي قتلتها!

ورمقه بنظرة معاتبة:

- الخائن لا يمكن أن يصبح وطنياً. قد يحدث ذلك في خيال شاعر، لكن الحقيقة ترفضه.

وتقلصت ملامحه بالانفعال:

- الخيانة مرض ميئوس من شفائه، وإن كان الوطني قد يسهل التأثير عليه، فيقدم على الخيانة.

ثم وهو يضغط على الكلمات :

- المثل يقول: من عرف بالصدق جاز كذبه، ومن عرف بالكذب لم يجز صدقه.

تحدث عن الصرامة، وأنها واجبة لاستتباب أمور القبيلة. أعلن أن مسئوليته هي إطفاء حركات التمرد، وردع البغاة، والخضوع للشريعة، وفعل ما لا يغضب السلطان، أو يثير موجدته.

مال بظهره إلى الخلف، شبك أصابع يديه على صدره:

- أنا الحاكم، لكن الحاكم لا يتصرف بمفرده، قد لا أستطيع حمايتك!

وواجهه بنظرة إشفاق مبطنة بالتهديد:

- ينتظر السلطان أن أسلمك لجنوده.

ثم وهو يومئ برأسه:

- لكنني أتركك لتذهب..

واستطرد فى لهجة محذرة :

- نصيحتي أن تعود إلى حيث كنت!

بدا على السيد الصباغ أنه يريد التخلص منه، وإبعاده عن القصر والمدينة.

تأكد تخمينه لما كسا الرجل نبرته خشونة واضحة:

- ابتعد عن مدينتي قبل آخر ضوء في النهار.

الفصل الرابع عشر

بدت المرئيات مناقضة لما شاهده في المدينة المحرمة، الملاصقة، أو الأبهة التي طالعته في قصر السيد الصباغ.

البيت في داخل الحي الشعبي الملاصق للجبل. الشوارع ضيقة مترية، موحلة، يكسوها الطين والحفر والمطبات ، البيوت من الخشب والكرتون والصاج والصفيح. الأولاد العرايا ، والنسوة الجالسات على الأبواب يخضن في أحاديث متشابكة. الشعارات على الجدران متداخلة، يصعب أن تعطى معنى محدداً.

مضى بإرشاد المارة والقعود والمطلات من النوافذ. اخترق الشوارع والعطوف. ميز البيت – من بعيد – بالعشرات الذين تناثروا في الساحة الصغيرة، وجلسوا على الرصيف، ولصق الجدار.

حدس أنهم مريدون، وأصحاب شكاوى، وذوو حاجات، وطالبو نصفة.

لم يختر الشيخ لإقامته موضعاً نائياً كالأديرة، ولا تعلوه مئذنة فوق صحن لأداء الصلوات كالمساجد. جعل إقامته في بيت ملاصق لعشرات البيوت، يطل على شارع ضيق، تتفرع منه شوارع تفضى إلى أحياء قريبة وبعيدة.

عبقت في المكان رائحة عظيمة، تسكر الحواس.

سأل المرأة القعيدة أمام البيت:

- أين الحراس؟

قالت المرأة وهي تنفض الدقيق من جلبابها الأسود:

- أي حراس؟

- حراس الشيخ.. من يأذنون لي بالدخول؟

- إذا أردت لقاء الشيخ فقف على باب البيت..

استطردت موضحة:

- الشيخ يضايقه الزحام، ويميل إلى الخلوة.

الباب الخارجي، والطرقة المفضية إلى صالة الاستقبال والحجرات مفتوحة. لا يصد من يريد لقاء الشيخ السبحي حجاب ولا حرّاس ولا أوامر. المريدون يقفون أمام باب البيت، وخارج باب الحجرة، لا ينصرفون حتى يأذن الشيخ لهم. إذا كان الشيخ منقطعاً لخلوته، فإن وقت الانتظار بين المريدين يضفي على النفس طمأنينة.

أوقفه فيض نور من داخل حجرة الشيخ، فلا يقوى على الدخول. تأدب أمام الحضرة، أو أنه خشي على الضوء من أن يؤذى عينيه.

النور بلا نهاية، ولا حد له، والبحر بلا شاطئ، وآفاقه غائبة. ليس ثمة بداية ولا نهاية، والعدم دعوى باطلة.

تعددت الروايات : عكف على الصلاة والعبادة والدعاء. انقطع إلى الله تعالى، لا يصرف وقته في غير طاعته. يمتثل الأوامر، ويجتنب النواهي. هجر الدنيا الفارغة وتجافي عنها. زهد في زخرفها وزينتها. نفض يديه عن كل ما يشغله بها. خاض بحار المعرفة المتناهية الآفاق. حفظ القرآن من الفاتحة إلى المعوذتين، وحفظ الصحيح من الأحاديث الشريفة، وقرأ السيرة النبوية، وسير آل البيت والخلفاء الأربعة وكبار الصحابة والتابعين وأولياء الصوفية..

مال إلى المجاهدة وقطع العلائق. قلل من أسباب الدنيا. رفض أن يكون التعبير عن التصوف هو الخرقة والجبة والمريد والتاج. رفض ما نسبه إليه مريدوه من الكرامات. قال إن الكرامة قد تكون من فعل الشيطان.

لكن الروايات تحدثت عن مناقبه ومآثره. روى أنه سخر مغيبات الجن والأرواح الطيبة. يتحدث مع مخلوقات لا يشعر بها سواه، ويرى ما لا يراه أحد.

قام بربه على قلبه، وقام بقلبه على نفسه. ينشغل في قراءة الترتيل والأوراد والتسابيح. زهد فيما يقبل عليه خاصة القوم والناس

العاديين، وإن ظل على صلته بالناس، لا يجنح إلى الانزواء. باب بيته مفتوح. معظم وقته لمريديه وأتباعه وطالبي المدد. هو لهم مثل الشمس للدنيا، والعافية للبدن..

مال إلى الزهد في الدنيا، والإعراض عنها، والتخفف من أثقالها. يخلع الدنيا مع مركوبه عند باب حجرته.

حياته انعزال، قد يطول انقطاعه عن المشيخة والمريدين. يحبس نفسه في صومعة عبادته. يؤثر الانفراد والعزلة والخلوة، يخلص في العبادة والزهادة. يقبل على الصلاة والصيام والذكر والمجاهدات الروحية. يؤدى صلوات – في أوقات مختلفة من النهار والليل – غير الصلوات الخمس المفروضة. يرفع صوته في تلاوة القرآن، يجوّد في الترتيل، يجتهد في إبراز مخارج الحروف.. لكنه يميل إلى الرفق بالناس، وبذل المعروف، ومجالسة الفقراء، ومؤاكلة المساكين، ومساعدة الضعفاء، وإغاثة الملهوفين. يحرص أن يفتح باب صومعته لكل من يقصده. يخاطب المترددين على الصومعة بلغة بسيطة، يسهل فهمها. ما يتناسب مع مدارك الجميع وقدراتهم. يتسنى لهم الإيمان بما يقول، والإذعان بآرائه وأقواله.

لم يكن يعظم إنساناً، أو يحقّره، لمكانته. قيمة الإنسان في علمه وأدبه، وفي اتباعه للكتاب والسنة، والتأسي بعمل السلف الصالح، قولاً وعملاً. التواضع قيمة أولى في أخلاق الصوفية. من يتعالى على

الناس يفقد مفتاح الجنة. كان يصعد إلى أعلى مئذنة الجامع. يحرص على أن يضع بنفسه حفنات الحب لأكل الطير في طبق صغير جعله لهذا الغرض..

لاح له الكثير من التجليات والأنوار والمناقب، ورقى الدرجات والمقامات. كشفت عنه الحجب، ونفذت بصيرته إلى أسرار الكون. طالعته الأنوار والبركات والفيوض. يدله إيمانه – بقدرة الإله الواحد – على ما في السموات السبع والأرضين والجبال والبحار، يستشف الغيب، وما تنطوي عليه نفوس البشر من رغائب ونزعات. يخبر الناس بما في ضمائرهم، وما يكتمون.

رويت عنه مناقب وكرامات، لم تتفق لسواه من أقطاب الأولياء. تشغله محبة الله إطلاقاً، شوقه دائم إلى لقاء الحق تعالى، يترقب ما لا يدركه، وإن كان يريده. لا تشغله جنة الآخرة ولا نارها، ولا يطمع في الجنة، ولا يخشى النار. يصعد إلى السماء. يدور مع الأفلاك الدوارة. يخطو فوق القمر. يقترب من الشمس حتى يلامسها، لا تحرقه نيرانها، ولا يفقده وهجها بصره.

يجلس الناس إليه، ينصتون، يسألون، يناقشون، يطمحون لفهم المعاني.

إذا تحدث، ظهر منه نور يملأ المكان، فلا يقوى المريدون على النظـر إليـه. وكـان النـاس يحنـون رءوسـهم عنـد مـرورهم أمام بيته..

أطاعه مريدوه. أسلموا له قيادهم. سلموا بعظمته، وعلو قدره. تناقلوا أقواله وكراماته. نقلوها إلى المدن والقرى والبيادر والخيام. روى أن معجزاته انتقلت إلى الكثير من خلفائه وأتباعه ومريديه. ازدادت شوكته، وازداد تأثير زاويته وطريقته الصوفية.

امتلأ المكان بأطياف مثل التي التقى بها زياد في الغابة. اقتعدت الأرض، وتلاصقت، في الطرقات، وعلى السلم، وأمام البيت. لها رائحتها التي لا يخطئها أنفه، تختلط أصواتها بالأدعية والتراتيل والتسابيح والموسيقى الخافتة، الغائبة المصدر. تصاعدت أعداد منها، بدت كأنها التصقت بالسقف، ترنو إلى الشيخ المستغرق في رؤية ما يراه هو وحده. يفيق مما يبدو أنه يستغرقه، وينادى بالاسم. يجيب طيف، ويمتثل في حضرة الشيخ، ينصت إلى ما يطلبه. قد يتجه النداء إلى الواقفين والقعود، رجال ونساء، قصروا أنفسهم على تلبية ما يطلب، أو ينصحون من يختارونهم، فينطلقون.

حين أنهي الشيخ ما كان يشغله من تأملات، شحب الضوء في الغرفة.

انحنى على يد الشيخ يقبلها. قال:

– أرجو ألا أكون قد أسأت اختيار وقتي..

قال الشيخ السبحي وهو يمسح حبات عرق نبتت في جبهته:

– لا أكتفي بما أقرأ.. وإنما أفكر في ما أقرأه.

ظل الشيخ صامتاً وهو يروى له ما تصور أنه لا يعرفه. فاجأه بأنه يعرف الحكاية من ألفها إلى يائها.

رفض عطاء السيد هادى الصباغ وصلاته، وأهمل الالتصاق بذيول الحكام.

حدثه عن الفتاة التي قتلها السلطان. وافق السيد هادى على ما حدث، ولم يرتفع صوت بالغضب.

كانت فدوى هي واسطة الناس إلى الشيخ السبحي، توصل شكاواهم، وتشرح ما يعانون، وتسعى لقضاء حوائجهم. عرفوا تدخلها لدى الشيخ السبحي، يحدث السيد هادى الصباغ، يناقشه في أفعال جنود السلطان وأعوانه، يناشده رفع المظالم، ورد الحقوق المغتصبة، وإقرار النصفة. وكان الشيخ السبحي ينفذ ما تريده دون سؤال، وبلا تردد.

لـم تسـعفه الروايـات بحقيقـة مؤكـدة عـن صـلـة فـدوى بالشـيخ السبحي، وإن تواترت معظم الأقوال بأنـه تولى رعايتها بعد أن فقدت أسرتها في تدمير جنود السلطان لمضارب القبيلة.

عادت الفتاة من الرعي في طرف الغابة لتجد التدمير قد لحق البيت، والمضـارب كلهـا. هـي الوحيدة التـي بقيت مـن أسـرتها، مـن عائلتها. أمضت أياماً بالقرب من البيت، وفي داخل الغابة.

صـحبها مريـدو الشـيخ السـبحي إلـى بيتـه. أشـفق علـى ظروفهـا، واحتضـنها برعايتـه. رفض أن توصـف بـاليتم. صـار كافل أمرهـا. هـو راعيهـا، أبوهـا وأسـرتها. بيـت الشـيخ هـو بيتهـا، تدخلـه، وتقـيم فيـه، وتخـرج منـه، دون أن تنتظر أسئلة من أي نـوع. تفيأت ظـلال حكمـة الشيخ ورعايته لها..

لطول ترددها على الغابة، كان طعامها – في أغلب الأوقات – يقتصـر علـى ثمـار الأشـجار، وشـرابها لـبن الحيـوان. وكانـت الطيـور تحط على كتفيها، أو رأسها، مثلما تحط على فروع الأشجار..

رويـت حكايـات عـن افتتـان الشـبان بهـا. حـاولوا التعبيـر عـن مشاعرهم نحوها بقصائد تتغنى بشعرها الحنطى، وعينيها الواسعتين، وخـديها المـوردين. ربمـا دخلـوا فـي مشـادات حـول مـن هـو أجـدر باسـتمالة مشـاعرها. تـداخل اسـمها فـي جلسـات المقـاهي والمسـاجد

والقعدات الخاصة والخلاء والمحاضرات ووسائل الإعلام وداخل الأماكن المغلقة.

تمازج في داخله الحزن والنشوة. كانت تخصه بصداقتها، يلتقيان في الغابة، يسأل وتجيب، تسأل ويجيب، تشرق أحاديثهما وتغرب. يبوح بحبه، توافق بصمتها.

قال الشيخ:

- ما قبيلتك؟

- هذه القبيلة.

- من أخبرك..

- أعرف ذلك منذ طفولتي..

ثم وهو يقاوم إحساساً بالمرارة:

- لجأت أسرتي إلى المنفي فراراً من السلطان.. طارد جند السلطان أبى حتى قتلوه.

أودع الشيخ نظرته تأثراً:

- إذا كان ما حدث قد سلبك سرور دنياك، فإنك قد تجد في نعيم الآخرة ما يفوق كل المسرات!

رفع عينين متوسلتين:

– أريد أن أكون من أتباعك..

قال الشيخ:

– أتباعي ليسوا مجرد مريدين. شرط مشيختي لهم أن يظهروا لشيخهم الإذعان والتسليم، ويعوا رموزه وإشاراته..

– لا أطلب إلا أن تدلني على اختصار الطريق إلى مدينتي..

– المدينة المحرمة؟

وطوح بيده كمن يطرد المعنى:

– تكرر دخولك إليها..

وذوت نظرات الاطمئنان، حلت محلها نظرات قلق:

– هذه ليست نزهة.

قال في لهجة تقريرية:

– ما يشغلني أن أدخل قصر السلطان.

تحدث عن شعوره بالغربة وسط ما لم يألف رؤيته في المدينة المحرمة: السحن واللغات والأزياء واختلاف العادات.

قال الشيخ:

- هذا هو ما يريدونه..

وتسارعت أصابعه على حبات المسبحة:

- لكننا نعيش في مدننا.

ثم بلهجة واثقة:

- يجب أن تطمئن أولاً إلى أن المدينة المحرمة هي مدينتنا..

أردف وهو يشيح بوجهه بعيداً:

- هذا الاطمئنان بداية استعادتها من قبضة السلطان..

وارتفعت نبرات صوته فبدت خطابية:

- نحن لم نهاجم أفراد قبيلته عندما قدموا إلينا، ولم نستول على سفنهم، ولا صادرنا ما كانوا يحملونه من متاع فقير. العكس ما حدث حين وفرنا لهم المأوى والكساء، وشاركونا طعامنا.

ثم وهو يهز قبضته:

- الله يأمر بقتل من أخرجونا من ديارنا!

استطرد كالمتنبه:

- هل تعرف ما أنت مقبل عليه؟ هل تدرك الثمن الذي ستدفعه؟

أومأ برأسه موافقاً.

قال الشيخ:

- تدبر النتائج الخطيرة باب لابد أن ننفذ منه.

عرف أن الشيخ السبحي يتيح له وقتاً، يدبر فيه أمره، يدرس المخاطر والنتائج المحتملة.

استعاد ما أنصت له من روايات : الشيخ السبحي يخاطب الأطياف البشرية والملائكة والجان. لسكناه قرب الغابة، ألف الناس رؤية الكائنات التي تحيا فيها تدخل بيته، وألفوا رؤية الشيخ يخاطب تلك الكائنات، كلّ بلغته. الطيور والوحوش والدواب. حتى خرير الماء، وهسيس الشجر، وضوء القمر والنجوم، استطاع أن يجد في ذلك كله لغة يفهمها، ويفيد بمعانيها مريديه.

رفض الشيخ روايات تحدثت عما وهبه الله من إمكانية شفاء مرضى الاستسقاء والجذام والفالج والأمراض المزمنة، وما جرى على يديه من الكرامات والمجاهدات والمكاشفات، مما جعل له في قلوب الناس موضعاً طيباً.

عرف عنه أنه لم يستخدم قدراته في الأذى مرة واحدة، رفض ما قيل عن تسلل جاسوس للسلطان إلى مجلسه، ينقل ما يشاهده، ويسمعه، فيعد السلطان خططه وردود أفعاله. جرت شفتا الشيخ

بتعازيم، فتحول إلى جرذ، وإن ظلت له ملامحه. جرى ناحية المدينة المحرمة، يستغيث بالسلطان ليعيده إلى هيئته. لمحه قط في المسافة الفاصلة بين الغابة والمدينة المحرمة. التقطه بمخالبه، وقذفه في فمه.

كان يعظ الناس، ويؤمهم للصلاة، يلقى فيهم خطبة الجمعة، يترأس الحلقات للمناقشات، وطرح الأسئلة، وتلقى الردود، وإبداء المشورة التي تبلغ القول الفصل. تلجأ إليه القبائل للقضاء فيما يشجر بينها. يحتكم إليه زعماؤها، يتراضون بالاحتكام إليه، يمتثلون لما يشير به.

يعرض على الناس أفكاره، فينصتون إليه. يحبون الكلمات التي تصدر من فمه. يوقظ في مريديه الرغبة في اقتباس الحكمة والفهم والأقوال التي تنير الطريق. لا يتحكم في مريديه، ولا يأمرهم، بقدر ما يخاطبهم ويعلمهم وينصحهم، ويشير بما يرى أنه الصواب.

أنكر زعم تحقيق المعجزات، والإتيان بما قد يعجز عن فعله البشر، ولا إحياء الموتى، ولا اختراق المسافات، ولا السباحة في الغيم، ولا السير فوق الماء، ولا إبراء أسرى الأمراض القاسية، ولا تطرقت عظاته إلى حور العين، وأنهار اللبن والعسل والخمر.

يحلم بمجتمع جديد، لكن السلطان يحرص أن يظل كل شيء على ما هو عليه.

لا تطمح نفسه إلى الجلوس على عرش، ولا إلى تحقيق ما يرضى نفسه، أو القريبين منه.

ما يشغله في الأمر أن ينسحب ظل السلطان، فلا يغطى حياة الناس بالظلمة.

تحدث عن حق الناس في أن يتحرروا من سطوة السلطان واعتداءات جنوده. أخذ على السيد هادى الصباغ أنه يتصالح مع الثراء، ويأخذ بأسباب الدنيا، ويقبل عليها، ويتحقق في الحياة. السيد الصباغ يكتفي بتنفيذ ما يطلبه السلطان. لا يسأل، ولا يناقش، ولا يبدى رأياً.

ضايقه أن التخاذل في تصرفات الصباغ، انعكس على أفكار الناس وتصرفاتهم. مالوا إلى تقبل ما كانوا يرفضونه، وإلى المهادنة. لم يعد يشغلهم حتى مجرد طلب الثأر من السلطان على عمليات القتل والتدمير.

أهمل التحذيرات بالآذان المتنصتة، والتقارير، والوشايات.

الفصل الخامس عشر

اختلط الأحياء والأطياف، يتلاصقون، أو يخلون منفذاً، يمضى منه إلى مجلس الشيخ. يدرك الشيخ – دون أن ينصرف عن استغراقه – أن الشاب يعانى في الوصول إليه. ينادى باسمه. تفسح له الأجساد والأطياف منفذاً يخترقه للمثول بين يدي الشيخ.

وجد في الشيخ السبحي قطباً يدين بتعاليمه، وأستاذاً يرشده، يعلمه، يوجهه، ينصحه. خصّه – من بين مريديه – للدخول إلى حجرة نومه.

عرف – من أحاديث الشيخ – أن مصيره تحدد منذ مولده، وأن طريقه هي إلى الجنة. أيقن أن المرء يموت مرة واحدة. يمر زمن السكون بما تقضى به إرادة الإله، ثم يصحو الجميع للحساب، والخلود في الجنة، أو في النار..

قال الشيخ بلهجة محايدة:

– إذا ظللت حياً فأنت مجرد هارب من قبضة السلطان..

ثم وهو يربت كتفه:

– إذا لقيت الشهادة فأنت تضمن الجنة.

لم تعد فكرة الموت تخيفه. هي انتقال من حال الصحو إلى حال النوم.

قال الشيخ السبحي:

- لن نستطيع أن نستعيد المدينة المحرمة ما لم نستعد هذه المدينة..

قال زياد:

- نحن نحيا فيها بالفعل..

- هذه ليست المدينة التي تكافئ تطلعنا للعودة إلى مدينتنا القديمة..

واتجه إليه بنظرة متسائلة:

- ناس القبيلة يثقون بك.. لماذا لا تساعدهم؟

وهز رأسه مؤمّناً:

- أنت ابن القبيلة، وإن طال غيابك عن مضاربها..

وانتزع ابتسامة هادئة:

- ولدت في المنفي، فلا حيلة لك في الابتعاد عن الوطن.

أعطاه الناس ثقتهم ليعيد بناء مدينتهم، يحيلها من صحراء ومضارب خيام، إلى مدينة حقيقية..

عاب على أبناء القبيلة أن حياتهم تقتصر على دخول المدينة المحرمة – كل صباح – للعمل في حصاد المزروعات، ورصف الطرق، وتشييد المباني، ونظافة الشوارع. يعودون – قبل أن ينتهي النهار – إلى مدنهم وقراهم.

شدد على أنه يجب أن يحافظوا على جذورهم ودينهم. أظهر ضيقه لأنهم نسوا أصول القبيلة ولغتها وعاداتها وتقاليدها. حتى الأغنيات والرقصات التي اتسمت بها حفلاتهم وأعيادهم، غابت عن الذاكرة.

طالبهم بأن يحافظوا على الأرض التي لم يبتعدوا عنها منذ مئات السنين. أن يستقروا في الموطن، وأن يمارسوا صيد البحر والنهر والبادية والغابة، ويمارسوا الزرع والحصاد.

أفادت القبيلة من تلاشى الحدود والفواصل بين مناطق السلطنة. توزعت في أرجائها كما نصحها الشاب. من كان من أبنائها في موضع لم يتركه، وانقسمت الجماعات، وتكاثرت بالانقسام. حلت في المواضع التي تعرفها جيداً.

اجتمعت قلوبهم على محبة زياد. لم يعرف عنه شيء من الكبائر والموبقات والمحرمات، وما يؤذى صورته أمام ضميره، وأمام الناس. صار مرجعهم في كل ما يواجهونه من مشكلات. لجأ إليه الكثيرون، يعرضون عليه شكاياتهم. امتثلوا لأوامره، وتجنبوا ما نهاهم عنه. ينحنون امتثالاً وأيديهم على صدورهم.

صار مرجعهم في كل ما يواجهونه من مشكلات. حتى الشيخ السبحي، لم يعد يقضى في مشكلة ما، إلا بعد أن يرجع إلى زياد. يستمع إلى نصائحه. لا يسرف في مناقشته، ولا يخالفه بعدم تنفيذها. يعتبرها أموراً واجبة التنفيذ..

تدرب أبناء القبيلة على استخدام الأسلحة. تعلموا فنون القتال. تسلحوا بالعصي والهراوات والرماح والسيوف والبلط. حفظوا الأسلحة في كهوف الجبال والسراديب. حفروا السراديب تحت الأرض، بطنوها بالرخام. أخفوا مداخلها بأشجار وزراعات وتلال ترابية. غطوا مواضع الأسلحة والذخائر – الأقواس والسهام والنبال والمدى والهراوات – بالأغصان والشجيرات. تختلط بالطبيعة من حولها، فلا ترصدها أعين السلطان، لا من فوق الجبال، ولا من الأماكن البعيدة.

طالب الشيخ السبحي مريديه بألا يعجلوا بإعلان العصيان. نصح بالتريث حتى يبدو تحقيق الفرصة متاحاً، فيبادر بالتحرك.

كان زياد يلوذ بنفسه في موضع ناء، لا يلتقي بأحد، ولا يأذن حتى لأصدقائه من أبناء القبيلة، أن يلحقوا به.

لم يكن يتحدث عن الموضع الذي يتجه إليه. يكتفي بالقول إنه ألف العكوف على القراءة والتعبد والتأمل، في موضع بالخلاء، لا يجلس فيه إلى أحد، ولا ينشغل إلا بما قصده. إذا عاد، بدا عليه تمازج الراحة والإرهاق، وانتاب جسده ما يشبه الرجفة، وتداخلت في صوته حشرجة كأنه يعانى..

أحاطت بالشاب حكايات كثيرة. أكثر من الوسائد على أرض خيمته الصغيرة، ولصق الجدران، وفوق قطع السجاد. حدّسوا أنه يحشوها بأفعال السحر.

قيل إنه على اتصال بالقوى الخفية، التي ترى الناس، ولا يراها الناس. قيل إنه يصادق الجان، يكلمهم ويكلمونه. يسألهم الرأي، ويداعبهم، ويأمرهم بما يقدمون على فعله عن طيب خاطر. تحدثت روايات عن اتصاله بأقوام من خارج المدينة، وقد يكونون من خارج الأرض. أقوام لهم سحنهم المميزة، ومعتقداتهم التي تقتصر عليهم، لا يجاريهم فيها أحد. يؤمنون بالإسلام، وإن مارسوا شعائره بطريقتهم الخاصة. يضمنون صلواتهم تلاوات سحرية، وأدعية. يلتقي بهم في الخلاء. يمضى بمفرده. يتأكد من أن أحداً لا يتبعه. لا يتأثر – بحول الله – بحر ولا برد، وتبتعد الضواري عن طريقه، ولا تؤذيه الحيات

والسحالي، وكل ما فوق رمال الصحراء، وفي داخلها. يلتقي بمن يسأله، ويجيب عن أسئلته، ويأخذ منه ويعطى. يشير عليه – في النهاية – بالرأي الصواب. ينصحه بما يجب أن يفعله، لا يقدم على فعل التهور، ولا يسئ إلى من يستحق الإحسان، ويغنى مع مخلوقات العوالم الغريبة، ويراقصها في مساحات تكتنفها الخضرة والأشجار الملأي بالثمار، والمفعمة بروائح الياسمين والفل والريحان.

دفع الفضول بعض أبناء القبيلة إلى ملاحقة خطواته – في السر – ليتعرفوا إلى الموضع الذي يقصده. يشغلهم التعرف على ما يخاطب به الشاب هذه الأطياف التي لا يراها أحد.

أبطأت خطواتهم، وتوقفت تماماً، أصابهم ما يشبه الذهول حين ترامى إلى أسماعهم تمازج أصوات كأنها أنغام علوية لا عهد للبشر بها، وحفيف ثياب غير مرئية، تطير، وتسير، وتجلس، فوقهم وحولهم. تحلق فوق الأسطح والقباب والمآذن والأبراج والتلال.

عادوا بالخوف. كتموا ما واجهوه في نفوسهم، لم يتحدثوا به إلى أحد، وإن انضم غالبيتهم – في الأيام التالية – إلى مريدى الشيخ السبحى وأتباعه. عرفوا النور والخير والطهر. أخلصوا في عبادة الخالق، وباعث الوجود ومنظم الكون، الواحد الأحد. اتجهت الرؤوس إلى السماء. علت الأصوات بالدعوات والابتهالات. تمايلت الرؤوس بالأذكار.

كان الخلاء يمتلئ بالأطياف، والمخلوقات الجميلة، المحلقة، والتي تلامس الأرض، عشرات العرائس الجميلات يرتدين الملابس الحريرية البيضاء، تحدث في ملامستها للأرض ما يشبه حفيف أوراق الشجر..

خرجوا من مياه البحر والنهر، ومن وراء صخور الجبل، ومن داخل الكهوف والأقبية. ترامت أصواتهم من فوق الشجر والنخل، ومن الشرفات والنوافذ والشوارع الصاعدة، ومن فوق الأسطح. رأي جماعة منهم يجلسون فوق قبة الجامع الكبير، ويدلون أقدامهم..

غاب إحساسه بالوحدة في رقصات الأطياف، وغناء العرائس الذي يشبه التراتيل والأدعية والابتهالات.

لم يعد بمفرده في الغابة.

امتثلت له الأطياف والعرائس، تنصت إلى أوامره، وتلبيها. وعدته أن تحميه، وتدافع عنه..

***

لاحظ الشيخ إمارات ارتباك في ملامحه. قال:

– تريد أن تقول شيئاً؟

وهو يغالب ما يعانيه:

– أشعر بالخوف.

– مم؟

– التوقعات.

– أدرك المعنى..

استطرد لنظرته المتسائلة:

– أدرك الخوف.. أفهمه..

وجاهد ليبدو صوته هادئاً:

– نحن جميعاً نخاف، لكن علينا أن نكتم الخوف ولا نعلنه.

وأشار بإصبعه إلى نفسه:

– الخوف في داخل كل منا، المهم ألا نضخمه وألا ننقله إلى من حولنا.

استطرد في ابتسامة متكلفة:

– ربما مثّل إعلان الخوف تحريضاً للآخرين على أذيتنا!

ورفع نظرته المشفقة إلى توتر ملامحه:

– إذا كنت تطمئن إلى صحة قرارك، فلا تنشغل إلا بتنفيذه.

وهز إصبعه:

- لا تخف!

قال:

- أعتذر لجرأتي، لكن ليطمئن قلبي..

ثم وهو يخفض رأسه:

- ما سأفعله هو انتحار. من ينتحر مصيره إلى النار..

- نحن لا ننتحر، لكننا نبذل نفوسنا فدية عن الجماعة..

وأغمض عينيه يدارى تأثره:

- هذه شهادة، الشهيد مآله الجنة.

الفصل السادس عشر

قال الشيخ السبحي:

– استعد لفراقنا.. فما هو صائر قد آن أوانه!

واتجهت عيناه إلى الفراغ أمامه:

– لم نحدثك في شأن الرحلة إلا بعد أن حصلت على وعد الريح بأن تعينك على الطيران..

عرف – من قبل أن يلتقي بالشيخ – أنه يأمر الريح. يسيطر على الكائنات – البشر والحيوان والطير والزواحف والأشجار – بالمكاشفات والخوارق..

حلقت الأرواح، أو الأطياف، في هيئة الطير، تلاقت وتباعدت في تكوينات رنا إليها بنظرة متأملة..

قال الشيخ:

– هذه الأطياف لمريدين حاولوا استعادة المدينة المحرمة.

– هل أفلحوا؟

– لو أنهم أفلحوا، هل كنت تعانى الوقوف على أبوابها؟

– مشكلتي أنى لا أستطيع البقاء في داخلها..

قال الشيخ:

- النملة تعاود صعود التل عشرات المرات حتى تبلغ ما تريد.

- عزائى أن أفشل بدلاً من أظل ساكناً خوفاً من الفشل!

ناوشته الرغبة في أن يطير. تواتيه القدرة في أن يحلق فوق الغابة والسهول والجبال والوديان. لا يشغله إن ظل على هيئته، أو تحول إلى طيف.

هذا هو ما تفعله الكائنات الطيفية، فلماذا لا يفعله؟ لماذا لا تساعده على أن يفعله؟ لماذا لا يساعده الشيخ السبحي على أن يرقى إلى السماء، ولو على جناح طائر؟

تخيل نفسه طائراً، ينبت الريش في جنبيه، يتحول ذراعاه إلى جناحين يحلقان به في الفراغ، تطول أظافره فتصبح مخالب..

قال:

- هل أصبح قادراً على الطيران؟

- لن تطير ما لم تكن قادراً على الفعل..

ووشى صوته بنبرة تعليمية:

- ستكون طائراً.. لكنك لن تترك الأرض إلا بإذن منى، ولن تعود إليها إلا بالأمر نفسه!

– كيف أطير بلا جناحين؟!

– كل الأطياف التي تحلق في أجوائنا بلا أجنحة.

اشترط عليه الشيخ السبحي – لكي يتحول إلى طائر – أن يؤدى ألف ركعة صلاة، دون توقف. لم يلحظ تحت إبطيه، ولا في جنبيه – في الركعة المائتين والستين، ريشاً أو زغباً.

تحسس بشرته. بدت ناعمة، ملساء، إلا من الشعر الذي ألف وجوده في مواضع متناثرة من جسده. منحه – بدلاً من الاختفاء – سر التحليق في الفراغ، وما يعينه على اقتحام المخاطر. فرد ذراعيه بامتدادهما. تمتم بأدعية، شعر – بعدها – كأن جناحين ينبتان تحت إبطيه، ويمتدان، وبذراعيه تتغطيان بالريش، كأن ذراعيه تحولتا إلى جناحين يحفظان توازنه، ويعدان بحمله إذا حلق طائراً.

داخلته قوة هائلة، لم يعهدها من قبل. هو أقوى حتى من حيوانات الغابة. باستطاعته – منذ اللحظة – أن يعتمد على نفسه. لم يعد هناك ما يخشى منه، أو يعجز عن مواجهته. تبين في داخله – وهو مقبل على ما يدرك نتيجته – روحاً أشد شفافية وحباً للحياة مما كان يتصور..

اطمأن إلى موضع المتفجرات حول خصره. تقافز في موضعه. علت قدماه فوق الأرض. لما استوثق من قدرته على التحليق، تحرك خطوتين، ثم فرد ذراعيه بامتدادهما. عاود التقافز، ثم انطلق طائراً..

التفت – بتلقائية – إلى آفاق البراح. النهر والخضرة والمآذن والأسواق وأبراج الحمام والشوارع والميادين والبنايات و القلاع والحصون والأبراج العالية والأسوار المدببة والمآذن والقباب والحدائق والأروقة والنافورات الرخامية. بدا الناس – في أسفل – قطعاً متلاصقة، ومتناثرة.

جاوز الأسوار..

شغله – في البداية – تأمل المدن والقرى التي أقام السلطان مدينته في قلبها. استعاد الملامح والأحداث والروايات والذكريات. حلق فوق القصور، تفصل بينها الساحات والشوارع والقلاع والحصون والأبراج والبنايات والبساتين وأشجار الصنوبر والزيتون والبرتقال وكروم العنب والنخيل والزعتر والنرجس والحنّون – كم كان أبوه يشتاق إليها – أصاخ السمع للرموز السرية والأناشيد، علت بها أصوات أتباع السلطان.

انطلاق القذائف من أسفل، وشى بالتنبه إلى طيرانه. حرك ذراعيه بحيث يتقى ملامسة القذائف لجسده. امتدت يد – لا يراها –

من أعلى شجرة، تقاذفته الأيدي من فوق الأشجار حتى غابت الأصداء. أعانته القوى العلوية التي لا يراها أحد. صار في مأمن من الخطر..

حاول أن يفعل ما نصحه به الشيخ السبحي. ردد ما يحفظ من الأدعية. تعددت ضرباته في كل الأمكنة التي وصل إليها..

قال الشيخ السبحي:

– اقتل السلطان ولا تقتل المدينة..

همس بالدهشة:

– هل تُقْتل المدينة؟!

– إذا بلغ انتقامك جامعها الكبير فأنت تقتلها..

ضيق ما بين حاجبيه:

– إنها مدينتنا نحن، وليست مدينة السلطان..

كرر الشيخ هز إصبعه:

– لا تقتل المدينة!

حلقت طيور رآها للمرة الأولى. أخرجت من تحت أجنحتها ما يشبه القناديل الصغيرة. ألقت بها في الفضاء الفسيح، يطل على قصر السلطان، والأسوار من حوله، وبيوت الحراس.

لف ودار، وصعد وهبط، رأي موضع قصر السلطان فوق الهضبة. شب على قدميه، فارتفع فوق الأرض. تحسس إبطيه – بعفوية – ليتأكد ما إذا كانت معجزات الشيخ قد زرعت جناحين في جسده. لامس نعومة ما تحت الإبطين.

مال برأسه، كأنه يمضى به إلى الاتجاه الذي اختاره له. شعر أن جسده خفيف، وروحه حرة، ومنطلقة.

حتى لو مات، فإن شبحه سيظل في حياة السلطان، لا يتركه، ويؤرق أيامه، ويعد بما لا قبل له على احتماله من الأذى. ربما استحال طيفاً كتلك الأطياف التي تؤنسه منذ البداية.

واصل اندفاعه حتى ارتطم بالقصر.

علت الانفجارات والنيران.

مصر الجديدة – محمد جبريل ٢٠٠٣/٧/٢٩